ماريو بارغاس يوسا

من قتل بالومينو موليرو

ترجمة صالح علماني

روايات

١



سلسلة كتب تصدر عن

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشتراك:

٦٠ دولار في البلدان العربية

١٠٠ دولار في اوروبا والامريكيتين

العنوان

سوريا - دمشق صندوق بريد: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩



١

ماريو بارغاس يوسا

من قتل بالومينو موليرو

ترجمة صالح علماني

دار المدى للثقافة والنشر

٢٠٠١

إلى خوسيه ميغيل أوفيدو

الفصل الأول

– يا لأبناء أعظم العاهرات . – دمدم ليتوما بذلك شاعراً بأنه سيتقيأ ، وأضاف : – بأي حال تركوك أيها النحيل .

كان الشاب مشنوقاً ومثبتاً على شجرة الخروب الهرمة ، في وضع عبثي إلى حدٍّ بدا معه أشبه بفزاعة عصافير أو دمية كرنفال مفتوحة الساقين منه بجثة . تراهم مثّلوا به بهذا الحقد غير المحدود قبل قتله أم بعده : كان أنفه وفمه مشقوقين ، وعلى جسده خثارات دم جاف ، وكدمات وشقوق ، حروق سجائر . وكما لو أن كل ذلك لم يكن كافياً ، رأى ليتوما أنهم حاولوا خصاءه أيضاً ، لأن خصيتيه كانتا تتدليان إلى ما بين ساقيه . كان حافياً ، وعارياً من خصره حتى قدميه ، وليس عليه سوى قميص داخلي ممزق . إنه شاب نحيل ، أسمر ، وبارز العظام . وفي متاهة الذباب التي تحوم حول وجهه كان يلمع شعره الأسود المجعد . وكانت مَعِزُ الصبي تدور متثاقلةً من حوله ، كاشطة بأظلافها أحجار الخلاء بحثاً عن طعام ، وخطر لليتوما بأنها قد تبدأ في أي لحظة بقضم أقدام الجثة .

دمدم وهو يكبح غثيانه :

– من فعل هذه اللعنة ؟

فقال الصبي :

– وما أدراني ؟ لماذا تلعنني أنا ؟ ما هو ذنبي ؟ عليك أن تشكرني لأني ذهبت لإخطارك .

ودمدم ليتوما :

– لست ألعنك أنت أيها الصبي . إنني ألعن لأني لا أصدق أن في الدنيا أناساً أشراراً هكذا .

لا بد أن الصبي قد شعر بأعظم هلع في حياته هذا الصباح ، لدى مروره مع معازه من هذا الخلاء الصخري واصطدامه بمثل هذا المشهد . لقد تصرف الصبي كمواطن مثالي ؛ فترك قطيعه يرعى الحجارة إلى جوار الجثة وهرع إلى تالارا ليخطر مركز الشرطة . إنه يستحق التقدير ، لأن تالارا تقع على بعد ساعة من المسير على الأقل عن هذا المكان . وتذكر ليتوما وجهه المتعرق وصوته المتهدج حين ظهر عند باب الموقع :

– لقد قتلوا شخصاً ، هناك ، على طريق لوبيتوس . إذا أردتم فإنني سأرافقكم ، إنما الآن فوراً . لقد تركت معازي طليقة ويمكن أن يسرقوها .

لم يسرقوا أيّاً منها لحسن الحظ ؛ فرغم القشعريرة التي أثارتها فيه رؤية حالة الميت لدى وصولهم ، إلا أن الشرطي لمح الصبي وهو يعدّ القطيع بأصابعه ، وسمعه يتنهد بارتياح : « كلها موجودة » .

وهتف سائق التكسي من وراء ظهره :

– ولكن . . يا للعذراء المقدسة . لكن ، لكن . . . ما هذا ؟

كان الراعي قد وصف لهما ما سيريانه تقريباً وهم في الطريق ، ولكن التخيل شيء والرؤية والشم شيء آخر . إذ كانت تنبعث من الجثة كذلك رائحة جد كريهة . وليس ذلك بالكثير تحت هذه الشمس التي تبدو وكأنها تثقب الأحجار والجماجم . ثم لا بد أن الجثة كانت تتفسخ بسرعة قصوى .

قال ليتوما :

- ألا تساعدني على إنزاله يا دون ؟

فزمجر سائق التكسي وهو يرسم إشارة الصليب ويبصق باتجاه شجرة الخروب .

- وهل من مخرج . لو أنكم أخبرتموني لأي شيء ستُستخدم الفورد ، لما كنت اشتريتها ولو بالمجان . أنت والملازم تستغلانني لأنكما تظنان أني مسالم جداً .

دون خيرونيمو هو سائق التكسي الوحيد في تالارا . ويمكن لسيارته القديمة ، السوداء والكبيرة كعربات دفن الموتى ، أن تجتاز في أي وقت السياج المعدني الذي يفصل القرية عن المنطقة المحظورة حيث تقع مكاتب وبيوت الأمريكيين العاملين في الانترناشيونال بترولوليوم كومباني . وكان الملازم سيلفا وليتوما يستخدمان السيارة كلما توجب عليهما الانتقال إلى مكان تكون الطريق إليه بعيدة على الجياد أو على الدراجة ، وهما وسيلتا النقل الوحيدتان المتوفرتان في موقع شرطة الحرس الأهلي . وكان سائق التكسي يزمجر ويعترض في كل مرة يستدعيانه فيها قائلاً إنهم يجعلونه يخسر مالاً ، بالرغم من أن الملازم كان يدفع له ثمن البنزين في مثل تلك الحالات .

قال ليتوما ، حين كانا على وشك الإمساك بالميت :

- انتظر يا دون خيرونيمو ، لقد تذكرت الآن . لا يمكننا لمسه إلى أن يأتي القاضي ويقوم بالكشف .

فتنحنح السائق العجوز :

- هذا يعني أنه عليَ أن أقوم بالرحلة مرة أخرى . إنني أنبهك إلى أنه على القاضي أن يدفع لي الأجرة أو فليبحث له عن مغفل آخر ينقله .

وفور ذلك تقريباً ، ضرب بيده على جبهته فاتحاً عينيه على

اتساعهما ، وقرب وجهه من الجثة وهتف :

– ولكنني أعرف هذا الرجل!

– من يكون ؟

– إنه أحد جنود الطيران هؤلاء الذين جاؤوا بهم إلى القاعدة الجوية في حملة التجنيد الأخيرة – وانتعشت ملامح العجوز – إنه هو : البيوراني الذي يغني ألحان البوليرو .

الفصل الثاني

- أكان يغني أغنيات بوليرو ؟ لا بد أنه هو الذي أخبرتك عنه إذن يا بن العم - أكد المونو .

فوافق ليتوما :

- إنه هو . لقد تقصّينا وثبت أنه هو : بالومينو موليرو ، من كاستيبيا . ولكن هذا وحده غير كاف لحل لغز معرفة من قتله .

كانوا يجلسون في بار تشونغا الصغير ، المجاور للاستاد ، حيث كانت تجري دون شك مباراة في الملاكمة ، لأن صرخات المشجعين كانت تصل إليهم واضحة . لقد جاء الشرطي إلى بيورا مستغلاً يوم عطلته ، أوصله سائق إحدى شاحنات شركة الانترناشيونال في الصباح ، وستعيده إلى تالارا عند منتصف الليل . وقد اعتاد ، كلما جاء إلى بيورا ، أن يقتل الوقت مع ابنيّ عمه ليون - خوسيه والمونو - ومع خوسيفينو ، وهو صديق من حي لاغاييناثيرا . كان ليتوما والأخوان ليون من حي لامانغاتشيريا ، وكان هناك عداء رهيب بين أهالي لامانغاتشيريا وأهالي لاغاييناثيرا ، ولكن الصداقة بين هؤلاء الأربعة كانت تسمو فوق ذلك العائق . لقد كانوا ظفراً ولحمته ، وكان لهم نشيدهم ، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم « المنيعون » .

قال المونو ساخراً :

– حلّ هذه القضية يا ليتوما وسيرفعونك إلى رتبة جنرال .

– سيكون ذلك صعباً . فلا أحد يعرف شيئاً ، ولا أحد رأى شيئاً ، والأسوأ من كل ذلك هو أن السلطات لا تتعاون .

ففوجئ خوسيفينو :

– أوَليست السلطات هناك في تالارا هي أنت يا صديقي ؟

– أنا والملازم سيلفا نمثل السلطة البوليسية . والسلطة التي لا تتعاون هي الطيران . وبما أن النحيل كان طياراً ، فأي لعنة ستتعاون إذا هم لم يتعاونوا . – نفخ ليتوما الرغوة عن كأسه وجرع رشفة من البيرة فاتحاً فمه كتمساح – . يا لأبناء العاهرات! لو أنكم رأيتم كيف تركوه لما كنتم مبتهجين هكذا تخططون للذهاب إلى الماخور ، ولأدركتم لماذا لا أستطيع التفكير بشيءٍ آخر .

فقال خوسيفينو :

– ندرك ذلك . ولكن قضاء الوقت في الحديث عن جثة أمر ممل . فلا تزعجنا أكثر بميتك يا ليتوما .

وقال خوسيه :

– يحدث لك هذا لأنك دخلت سلك الشرطة . فالعمل استنزاف للنفس . ثم إنك غير صالح لهذا العمل . يجب أن يكون للشرطي قلب من حجر ، وأن يكون ملعوناً بأمه إذا اقتضى الأمر . وأنت لست سوى عاطفي خرائي .

فوافق ليتوما قانطاً :

– هذا صحيح ، إنني كذلك . لا أستطيع نزع النحيل من رأسي . الكوابيس تداهمني ، ويخيل إليّ أنهم سيهرسون خصيتي مثلما فعلوا به . يا للمسكين : كانت خصيتاه متدليتين حتى ركبتيه ومسطحتين كما البيض المقلي .

ضحك المونو وقال :

- وهل لمستهما يا بن العم ؟

وسأله خوسيه :

- بمناسبة الحديث عن البيض ، هل ضاجع الملازم سيلفا البدينة ؟

فأضاف خوسيفينو :

- هذه المغامرة تشدنا جميعاً . هل ضاجعها ؟

تنهد ليتوما :

- بطريقته هذه التي يمضي فيها ، سيموت دون أن يضاجعها .

نهض خوسيه عن المائدة :

- حسن ، هلموا بنا إلى السينما لإضاعة الوقت ، لأن الماخور قبل منتصف الليل ليس سوى سهرة حداد . إنهم يعرضون فيلم فروسية مكسيكياً في سينما باريداديس ، وفيه تشارك روسيتا كينتانا . والشرطي سيدفع طبعاً .

فقال ليتوما :

- لا أملك نقوداً لدفع ثمن هذه البيرة . أنتِ ستقرضينني ، أليس كذلك يا تشونغيتا ؟

فردت تشونغا من وراء الكونتوار ، بمزاج ضجر :

- فلتقرضك تلك التي تعرفها .

قال ليتوما :

- لقد تصورت ردك عليّ . ولم أقل ذلك إلا لاستثارتك .

تثاءبت تشونغا قائلة :

- اذهب لاستثارة تلك التي تعرفها .

فقال المونو بمرح :

- اثنان صفر . تشونغا تكسب .

وقال ليتوما :

- لا تغضبي يا تشونغيتا ، هاك حسابي . ولا تتدخلي بأمي ، فالمسكينة ميتة ومدفونة في سيمبيلا .

التقطت تشونغا ، وهي امرأة طويلة وجلفة دون سن محددة ، الأوراق النقدية ، وعدتها ثم أعادت الباقي إلى الحارس وهو يخرج من الحانة مع الأخوين ليون وخوسيفينو .

وتحداها خوسيفينو :

- سؤال يا تشونغا . ألم يحطم أي من الزبائن زجاجة على رأسك يوماً لأنك تردين بإجابات كهذه ؟

فردت تشونغا دون أن تتكرم بالنظر إليه :

- لم يحصل أيها المتطفل .

- لا بد إذاً أن يفعلها أحدهم في يوم من الأيام ، لكونك لطيفة إلى هذا الحد .

- أراهن أنك لن تكون أنت . ردت تشونغا متثائبة وهي تجلس مجدداً وراء كونتوار البار المؤلف من صف من البراميل فوقها عارضة خشبية .

اجتاز المنيعون الأربعة الرمل ليصلوا إلى الطريق ، ومروا من أمام نادي البيض في بيورا ، وساروا باتجاه نصب غراو . كان الليل دافئاً ، وساكناً ومليئاً بالنجوم . تفوح فيه روائح خروب ، وماعز ، وبراز حمير ، ومقالٍ . وتساءل ليتوما ، الذي لم يستطع أن ينزع من رأسه

صورة بالومينو موليرو المعلق والممزق ، إذا ما كان عليه أن يندم لأنه صار شرطياً ولم يعش حياة المنيعين البوهيمية . لا ، لن يندم . فمع أن العمل قاس ، إلا أنه الآن يأكل يومياً ، كما أن حياته تحررت من التردد الذي كان عليه من قبل . كأن خوسيه والمونو وخوسيفينو يصفرون لحن فالس ، محاولين جعل أصوات صفيرهم منسجمة مع بعضها ، بينما هو يحاول أن يتصور النبرة الهادئة والرنة العميقة المؤثرة التي كان يغني بها النحيل كما يقول الجميع . وأمام مدخل سينما باريداديس ودع ابنيّ عمه وخوسيفينو . وكذب عليهم : سائق شاحنة الانترناشيونال سيرجع إلى تالارا في وقت أبكر من عادته في المرات السابقة ، وهو لا يريد أن يبقى دون وسيلة نقل توصله . وحاولوا انتزاع بعض السولات[1] منه ، ولكنه لم يتنازل لهم ولو عن نصف سول .

انطلق سائراً نحو ساحة السلاح . وفي الطريق ، لمح عند أحد المنعطفات الشاعر خواكين راموس ، ذا المونوكل ، وهو يجر العنزة التي يسميها غزالته . كانت الساحة تغص بالناس ، وكأن بوق الرجوع إلى الثكنة سيعزف . لم يول ليتوما اهتماماً للعابرين ، واجتاز الجسر القديم نحو كاستييا بسرعة ، كمن هو ذاهب إلى موعد غرامي . كانت الفكرة قد تبلورت في ذهنه أثناء تناول البيرة في حانة تشونغا . وماذا لو كانت السيدة غير موجودة ؟ وماذا لو أنها انتقلت إلى مدينة أخرى لتنسى مصابها ؟

ولكنه وجد المرأة أمام باب بيتها ، جالسة على مقعد صغير ، مستغلة برودة الليل وهي تفرط بعض عرانيس الذرة في صفيحة من التنك . ومن خلال باب البيت الصغير الذي كبيوت الحارات ، كان يظهر في الغرفة المضاءة بمصباح كيروسين ، الأثاث القليل : كراس من القش ، بعضها مخروق ، وطاولة ، ونباتات قرع جوفاء ، وصندوق لا بد أنه يستخدم خزانة في الوقت نفسه ، وصورة ملونة . ففكر : « إنه النحيل » .

---

(١) – السولات مفردها (سول) وهي وحدة النقد الأساسية المستخدمة في البيزو .

- مساء الخير .- قال وهو يتوقف أمام المرأة . وانتبه إلى أنها حافية القدمين وترتدي الثوب الأسود نفسه الذي كانت ترتديه هذا الصباح في مفوضية تالارا .

فدمدمت هي : « مساء الخير » ونظرت إليه دون أن تتعرف عليه . كانت بعض الكلاب الضامرة تتشمم وتزمجر حول المكان . وفي البعيد ، كان يُسمع صوت جيتارات .

سألها بصوت ينمّ عن الاحترام :

- هل أستطيع التحدث إليك لحظة يا دونيا أسونتا ؟ . . . عن ابنك بالومينو .

وتمكن ليتوما في العتمة الخفيفة من رؤية الوجه المحفور بالتجعدات ، وعينيها شبه المغطاتين بالجفون المتورمة وهما تتفحصانه بريبة . أكانت عيناها بهذه الحالة دوماً ، أم أنهما تورمتا في الأيام الأخيرة من كثرة البكاء ؟

- ألم تعرفيني ؟ إنني الشرطي ليتوما ، من موقع تالارا . لقد كنتُ هناك حين أخذ الملازم سيلفا أقوالك .

رسمت السيدة إشارة الصليب ، ودمدمت بشيء غير مفهوم ، ورآها ليتوما وهي تنهض واقفة بمشقة . دخلت إلى البيت وهي تجر صفيحة التنك الممتلئة بحبوب الذرة والمقعد الصغير . لحق بها . وما إن أصبح تحت السقف ، حتى نزع قبعته . وقد تأثر حين فكر بأن هذا البيت كان مسكن النحيل . لم يكن ما يفعله مهمة بتكليف من رئيسه وإنما مبادرة ذاتية ؛ حتى لا يأتيه من جراء ذلك أوجاع رأس .

- هل وجدتموه ؟ - همست المرأة بالصوت المرتعش ذاته الذي تكلمت به في تالارا ، حين قدمت إفادتها . ثم تركت نفسها تهوي على الكرسي . وبما أن ليتوما كان ينظر إليها دون أن يفهم ما تعنيه ، فقد رفعت صوتها : - جيتار ابني ، هل وجدتموه ؟

- ليس بعد .- قال ليتوما متذكراً . فقد ألحت السيدة أسونتا كثيراً على أن يعيدوا إليها جيتار النحيل ، وهي تلهث وتجيب على أسئلة الملازم سيلفيا . ولكنه لم يعد يتذكر ، لا هو ولا الملازم . هذه المسألة بعد أن ذهبت السيدة .- لا تقلقي ، سنجده عاجلاً أو آجلاً ، وسأحضره لك بنفسي .

عادت ترسم إشارة الصليب ، وبدا لليتوما أنها ترقيه . وفكر : « إنني أُذكّرها بفجيعتها » .

سمعها ترتل ، بفمها الذي لا يكاد يوجد فيه سوى سن واحدة أو اثنتين :

- كان يريد ترك الجيتار هنا وأنا قلت له خذه ، خذه! لا يا ميمتي ، ليس لدي وقت للعزف في القاعدة ، ولست أدري إن كانت هناك خزانة للاحتفاظ به ، فليبق هنا ، سأعزف حين أرجع إلى بيورا . لا ، لا يا بني ، خذه ، لتتسلى ، ليرافقك حين تغني . لا تحرم نفسك من جيتارك الذي تحبه كثيراً يا بالومينو . آي ، آي ، آي ، يا ولدي المسكين .

انفجرت بالبكاء وندم ليتوما لأنه جاء لمجرد استدعاء الذكريات المشؤومة للمرأة . تمتم ببعض عبارات العزاء وهو يحك رقبته . ولكي يفعل شيئاً ، جلس . أجل ، إنها صورته وهو يؤدي المناولة الأولى . تأمل طويلاً وجه الطفل الأسمر المتطاول ذا الزوايا الواضحة ، والشعر المناسب تماماً ، باللباس الأبيض ، وفي يده اليمنى شمعة ، وكتاب صلوات في اليسرى وتعويذة معلقة على الصدر . لقد لون له المصور وجنتيه وشفتيه بشيء من اللون الأحمر . صبي ضعيف ، ذو وجه ذاهل ، وكأنه يرى الطفل - الرب .

أجهشت دونيا أسونتا ، مشيرة إلى الصورة :

- مذ كان في هذه السن كان يغني غناء شجياً . وكان الأب

غارسيا يسمح له بالغناء منفرداً في الكورال ، وكانوا يصفقون له أثناء القداس .

فعلق ليتوما :

– الجميع يقولون إنه كان يتمتع بصوت رائع . وكان يمكن له أن يصير فناناً من هؤلاء الذين يغنون في الإذاعة ويقومون بجولات فنية . الجميع يقولون ذلك . يجب ألا يؤدي الفنانون الخدمة العسكرية ، يجب إعفاؤهم منها .

قالت السيدة أسونتا :

– لم يكن على بالومينو أن يؤدي الخدمة العسكرية . كان معفى منها .

بحث ليتوما عن عينيها . فرسمت السيدة إشارة الصليب وانفجرت بالبكاء من جديد . وبينما هو يسمعها تبكي ، راح يراقب الحشرات التي تحوم حول المصباح . كانت بالعشرات ، وكانت تهوي وهي تئز مصطدمة بالزجاج مرة بعد أخرى ، محاولة الوصول إلى اللهب . يا للهمجية! إنها تريد الانتحار .

نشجت دونيا أسونتا :

– لقد قال العراف إننا سنجدهم عندما نجد الجيتار . فالذين يملكون جيتاره هم الذين قتلوه . قتلة! قتلة!

أومأ لها ليتوما موافقاً . كان يشعر برغبة في التدخين ، ولكن إشعال سيجارة أمام آلام هذه السيدة ، بدا له وقاحة .

سألها بخجل :

– أكان ابنك معفى من الخدمة العسكرية ؟

وتلت عليه دونيا أسونتا ما تحفظه عن ظهر قلب :

- ابن وحيد لأم أرملة . كان بالومينو هو الابن الوحيد ، لأن ابنيّ الآخرين توفيا . هذا هو القانون .

وعاد ليتوما لحك رقبته ، موقناً أن البكاء سيتجدد :

- صحيح ، هناك تجاوزات كثيرة تُقترف . لم يكن لهم الحق بتجنيده إذن ؟ يا للتعسف . لو لم يجندوه ، لكان حياً الآن بكل تأكيد .

نفت دونيا أسونتا ذلك وهي تمسح عينيها بطرف تنورتها . وفي البعيد كانت رنة الجيتار لاتزال مسموعة ، وخطرت لليتوما فكرة خيالية هي أن من يعزف ، هناك في الظلام ، ربما عند ضفة النهر ، ناظراً إلى القمر ، هو النحيل .

ونشجت دونيا أسونتا :

- لم يجندوه ، بل ذهب متطوعاً بنفسه . لم يجبره أحد . لقد انضم إلى الطيران لأنه أراد ذلك . هو من بحث عن حتفه بنفسه .

بقي ليتوما يتفحصها بصمت . إنها امرأة قصيرة ، قدماها الحافيتان تلامسان الأرض برفق .

- ركب الحافلة ، وذهب إلى تالارا ، وقدم نفسه هناك في القاعدة وقال إنه يريد أن يؤدي الخدمة العسكرية في سلاح الطيران . يا للمسكين! بحث عن موته يا سيدي . هو وحده . . بنفسه . يا لبالومينو المسكين!

قال ليتوما :

- ولماذا لم تخبري الملازم سيلفا بذلك ، هناك في تالارا ؟

- وهل سألني ؟ أنا أجبت على كل ما سألوني عنه .

كان ذلك صحيحاً . سألها إذا ما كان لبالومينو أعداء ، وإذا كانوا

قد هددوه ، وإذا كانت قد سمعته يجادل أحداً أو يتشاجر مع أحد ، إذا ما كانت تعرف أحداً لديه أسباب لإيذائه ، إذا ما كان قد قال لها إنه يفكر بالهرب من القاعدة . وقد أجابت السيدة بانقياد على جميع الأسئلة قائلة : لا ، لا أحد مطلقاً . ولكن هذا صحيح ، إذ لم يخطر للملازم أن يسألها إذا كان النحيل قد دخل الخدمة لأن قرعته كانت كذلك أم أنه ذهب متطوعاً .

– أي أنه كان معجباً بالحياة العسكرية ؟ – قال ليتوما مذهولاً . فالفكرة التي تكونت لديه عن مغني البوليرو كانت مغلوطة إذن .

وأجهشت دونيا أسونتا :

– هذا ما لم أفهمه . لماذا فعلت هذا يا بني ؟ أنت في سلاح الطيران ؟ أنت . أنت! وهناك . . في تالارا ؟ الطائرات تسقط ، أتريد أن تميتني هلعاً ؟ كيف استطعت عمل شيء كهذا دون أن تستشيرني! ؟ لأني إذا استشرتك ستقولين لا يا أماه . لماذا ذهبت إذن يا بالومينو ؟ لأني أحتاج للذهاب إلى تالارا . إنها مسألة حياة أو موت يا أماه .

وفكر ليتوما : «بل هي مسألة موت» .

– ولماذا كان الذهاب إلى تالارا مسألة حياة أو موت في نظر ابنك يا سيدتي ؟

رسمت دونيا أسونتا إشارة الصليب للمرة الرابعة أو الخامسة :

– هذا ما لم أعرفه قط . لم يشأ أن يخبرني . وقد حمل سره معه إلى السماء . آي . آي! لماذا فعلت بي هذا يا بالومينو ؟

كانت عنزة داكنة اللون ، تخالطها بقع بيضاء ، قد أطلت برأسها إلى الحجرة وأخذت تتأمل المرأة بعينيها الواسعتين المشفقتين . ولكن شبحاً اقتادها بشدّ الحبل المربوطة به .

استغرق ليتوما متخيلاً :

– وقد ندم بعد فترة قصيرة من تورّطه . حين اكتشف أن الحياة العسكرية ليست خبزاً سهلاً ونساء مهديات ، كما قد يكون حسب من قبل . وإنما هي شيء أكثر إزعاجاً . أكثر إزعاجاً من ذلك بكثير . ولهذا فرّ من الخدمة . هذا أمر يمكنني أن أفهمه على الأقل . أما ما لا يُمكن فهمه فهو لماذا قتلوه . وبتلك الطريقة البربرية .

لقد فكر بصوت مسموع ، ولكن لم يبد على دونيا أسونتا أنها فهمته . وربما يكون قد ورط نفسه في الخدمة ليغادر بيورا ، لأن الأمر كان في نظره مسألة حياة أو موت . كان هناك من هدده هنا في المدينة وفكر بأنه سيكون بمأمن في تالارا ، داخل قاعدة جوية . لكنه لم يستطع تحمل الحياة العسكرية وفرّ من الخدمة . ثم وجده ذلك الشخص أو أولئك الأشخاص الذين غادر بيورا هرباً منهم فقتلوه . ولكن ، لماذا قتلوه بتلك الصورة ؟ لا بد أن يكونوا مهووسين أو متوحشين حتى يعذبوا بتلك الطريقة . فتى يكاد لا يزال صبياً . هنالك كثيرون يدخلون الجيش بسبب أحزان الحب أيضاً . وربما يكون قد فعل ذلك لخيبة أمل غرامية . قد يكون مولعاً بحب فتاة تخلت عنه ، أو خدعته ، وتحت وطأة المرارة ، قرر الذهاب بعيداً . إلى أين ؟ إلى تالارا . كيف ؟ بالدخول في سلك الطيران . وبدا له ذلك ممكناً ومستحيلاً في الوقت ذاته . فعاد يهرش رقبته بعصبية .

وواجهته دونيا أسونتا فجأة بجفاء :

– لأي شيء أتيت حضرتك إلى بيتي ؟

أحس أنه في وضع زائف . لماذا جاء إذن ؟ لا لشيء ، لمجرد فضول وخيم فقط . فتلعثم :

– لأرى إن كان بإمكانك أن تقدمي لي أي بصيص .

كانت دونيا أسونتا تنظر إليه مستاءة ، وفكر الحارس : «لقد انتبهت إلى أنني أكذب عليها» .

ودمدمت متألمة :

– ألم تستبقوني حوالي ثلاث ساعات هناك ، وأخبرتكم بما أعرفه ؟ ما الذي تريدونه أكثر . ماذا أكثر ، ماذا أكثر . أتظنون أنني أعرف من الذي قتل ابني ؟

فاعتذر ليتوما :

– لا تتضايقي يا سيدتي . لا أريد إزعاجك ، ها أنذا ذاهب . شكراً جزيلاً لأنك استقبلتني . سنخبرك عن أي جديد نتوصل إليه .

نهض واقفاً ، ودمدم : « طابت ليلتك » وخرج دون أن يمد إليها يده ليصافحها ، لأنه خشي أن تتجاهلها دونيا أسونتا وتتركها ممدودة في الهواء . وضع قبعته كيفما اتفق . وبعد عدة خطوات متعثرة في شارع كاستييا الترابي الضيق ، تحت النجوم اللامعة التي لا تحصى ، استعاد هدوءه . لم يعد يسمع صوت الجيتار البعيد ، وإنما أصواتاً مجرحة لصبية يتشاجرون أو يلعبون ، ولغط العائلات التي يتبادل أفرادها الحديث أمام أبواب بيوتهم ، وبعض النباح . وفكر : ماذا أصابك ؟ لماذا أنت مضطرب هكذا ؟ يا للنحيل المسكين . لن أعود المستهتر غير المبالي الذي كنته قبلاً ما لم أفهم كيف يمكن أن يكون في الدنيا أناس أشرار إلى هذا الحد . لاسيما أن الضحية ، وكيفما قلبت الأمر ، يبدو أنه كان فتى طيباً ، غير قادر على إيذاء ذبابة .

وصل الجسر القديم ، وبدلاً من أن يجتازه ، ليرجع إلى المدينة ، دخل إلى الريوبار ، المشيد بالأخشاب فوق هيكل أقدم جسر يصل بين ضفتي نهر بيورا . أحس بأن حلقه جاف كأنه قطعة من ورق الصنفرة . وكان الريوبار خاوياً من الزبائن .

ما كاد يجلس على الكرسي الذي بلا مسند حتى دنا منه موسيس ، صاحب الحانة والنادل فيها ، ذو الأذنين الطويلتين الناقوسيتين . والذي كانوا يطلقون عليه لقب دومبو .

- لم أعتد على رؤيتك بالبدلة الرسمية يا ليتوما - قال ساخراً وهو يقدم له كأساً من عصير اللوكوما : - إنك تبدو لي وكأنك متنكّر . وأين جماعة المنيعين ؟

فقال ليتوما وهو يشرب بنهم :

- ذهبوا لرؤية فيلم فروسية مكسيكي . أنا عليّ أن أرجع إلى تالارا الآن فوراً .

وقال موسيس وهو يقدم له سيجارة :

- كم هي لعينة مِيتة بالومينو موليرو . هل صحيح أنهم قطعوا خصيتيه ؟

فدمدم ليتوما متكدراً لأن ذلك هو ما يحاول الجميع معرفته قبل كل شيء . ولأن موسيس أيضاً سيبدأ الآن بالتندر على خصيتي النحيل :

- لم يقطعوهما تماماً ، وإنما انتزعوهما من موضعهما .

- حسن ، إنه الشيء نفسه . - حرك دومبو أذنيه الكبيرتين وكأنهما جناحا حشرة عملاقة . لقد كان له أنف عظيم كذلك ولحية ناشزة . إنه ظاهرة فريدة متكاملة .

سأله ليتوما :

- هل كنت تعرف الفتى ؟

- وأنت كنت تعرفه كذلك ، إنني متأكد . ألا تتذكره ؟ كان البيض يتعاقدون معه ليعزف السرينادات ، ويدعونه للغناء في الحفلات ، وفي الموكب الديني ، وفي نادي غراو . كان يغني مثل ليو ماريني ، أقسم لك . لا بد أنك تعرفت عليه يا ليتوما .

- الجميع يقولون ذلك . الأخوان ليون وخوسيفينو يقولون إننا كنا معاً في إحدى الليالي وإنهم جعلوه يغني في حانة تشونغا ، ولكنني لا أتذكر .

أغمض عينيه ، واستعرض مرة أخرى تلك الليالي ، شديدة الشبه ببعضها ، حول طاولة خشبية مدججة بالزجاجات ، حيث الدخان يلهب العيون ، ورائحة الكحول ، وأصوات السكارى ، والأشباح المختلطة ، وأوتار جيتار يعزف فالسات وتونديرات . أيمكنه فجأة ، في فوضى تلك الليالي ، أن يميز الصوت الفتي ، المرتعش ، المدغدغ ، الذي يدفع إلى الرقص ومعانقة امرأة والهمس لها بكلمات رقيقة ؟ لا ، إنه لا يظهر في أي مكان في ذاكرته . لا بد أن ابنيّ عمه وخوسيفينو مخطئون ، فهو لم يكن موجوداً ، ولم يسمع قط غناء بالومينو موليرو :

قال موسيس وهو ينفث الدخان من أنفه وفمه :

– هل تقصيتم عن القتلة ؟

فقال الحارس :

– ليس بعد . هل كنتَ صديقاً له ؟

فاتكأ موسيس وقال :

– كان يأتي أحياناً لتناول العصير . هذا لا يعني أننا كنا صديقين حميمين . لكننا كنا نتبادل الحديث .

– هل كان محدّثاً مرحاً ومنفتحاً ؟ أم أنه كان جافاً وأميل إلى الجد ؟

قال موسيس :

– كان صموتاً وخجولاً . رومنطيقياً ، ما يشبه الشاعر . من المؤسف أنهم جندوه ، لا بد أنه قاسى كثيراً من نظام الثكنة .

وقال ليتوما وهو يتذوق آخر قطرات عصير اللوكوما :

– لم يجندوه ، كان معفى من الخدمة . لقد تقدم متطوعاً ، وهو ما لم تفهمه أمه . ولا أنا أيضاً .

هز دومبو أذنيه :

– هذه هي الأمور التي يُقدم عليها العشاق المخدوعون .

فوافقه ليتوما :

– وهذا ما أفكر به أنا أيضاً . ولكن ذلك لا يوضح لنا من هم الذين قتلوه ولا دوافع القتل .

دخلت جماعة من الرجال إلى الريوبار ، ومضى موسيس ليلبي طلباتهم . كان ذلك الوقت هو موعد الذهاب للقاء سائق شاحنة الانترناشيونال الذي سيرجع معه إلى تالارا ، لكنه كان يشعر بضعف شديد . لم يتحرك . كان يرى النحيل وهو يدوزن أوتار الجيتار ، أو يراه في عتمة الشوارع حيث يعيش البيض من أهالي بيورا ، تحت شرفات خطيباتهم وحبيباتهم ، ليسحرهن بصوته البديع . ثم يراه بعد ذلك وهو يتلقى المكافآت التي يمنحونها إليه مقابل السرينادات . هل اشترى الجيتار بجمعه تلك المكافآت خلال شهور عديدة ؟ ولماذا كان ذهابه من بيورا هو مسألة حياة أو موت بالنسبة إليه .

قال موسيس وهو يحرك أذنيه بحنق :

– الآن تذكرت أنه كان كذلك .

– كان ماذا ؟ – وضع ليتوما ثمن عصير اللوكاما على الكونتوار .

– كان عاشقاً حتى عنقه . لقد أخبرني بشيء من ذلك . إنه حب مستحيل ، هذا ما قاله لي .

– أهي امرأة متزوجة ؟

– وما أدراني يا ليتوما! هناك كثير من الغراميات المستحيلة ؛ التعلق براهبة مثلاً . ولكنني أذكر جيداً أنني سمعته يقول ذلك في أحد الأيام . لماذا تبدو كل هذه المرارة في وجهك أيها النحيل المغني ؟ لأنني

عاشق يا موسيس ، وحبي مستحيل . لهذا السبب تطوع في الطيران إذن .

- ألم يقل لك لماذا كان حبه مستحيلاً ؟ أو من تكون هي ؟

نفى موسيس بحركة من رأسه وأذنيه في الوقت ذاته :

- قال فقط إنه لا يراها إلا خفيةً . وإنه يعزف لها سريnadات عن بعد ، في الليل .

- أرى ذلك - قال ليتوما . وتخيل النحيل يهرب من بيورا خوفاً من زوج غيور هدده بالقتل . «إذا عرفنا من هي التي كان يحبها ، ولماذا كان حبه مستحيلاً ، فسيفيدنا ذلك كثيراً» . ربما كان هذا هو تفسير القسوة التي عاملوه بها : غضب زوج غيور .

وأضاف موسيس :

- إذا كان هذا يفيدك ، فيمكنني أن أقول لك إن حبيبته كانت تعيش في المطار .

- في المطار ؟

- في إحدى الليالي كنا نتبادل الحديث هنا ، وكان بالومينو موليرو جالساً حيث تجلس أنت الآن . وسمع أن أحد أصدقائي سيذهب إلى تشيكلايو ، فسأله إن كان يستطيع إيصاله حتى المطار . وما الذي ستفعله في المطار في هذا الوقت أيها النحيل المغني ؟ . «سأذهب لأعزف سيرنادا لمحبوبتي يا موسيس» . هذا يعني أنها تعيش في تلك الأنحاء .

- ولكنْ لا أحد يعيش هناك . لا يوجد هناك سوى رمال وأشجار خروب يا موسيس .

هز دومبو أذنيه وقال :

- فكر قليلاً يا ليتوما . ابحث ، ابحث .

هرش الحارس رقبته :

- صحيح . هناك توجد القاعدة الجوية وإلى جوارها بيوت الطيارين .

الفصل الثالث

- أجل ، أجل ، بيوت الطيارين - كرر الملازم سيلفا - . إنه دليل . لن يستطيع العاهر أن يقول لنا الآن إننا نأتي لإضاعة وقته .

لكن ليتوما انتبه إلى أن الملازم ، بالرغم من متابعته المحادثة معه ومن حديثه عن موعد مع قائد القاعدة الجوية ، إلا أن روحه وجسده كانا يتابعان حركات دونيا أدريانا التي كانت تكنس المطعم . وكانت حركاتها السريعة والساهية ترفع أحياناً ذيل تنورتها إلى ما فوق الركبتين ، كاشفة عن الفخذ الغليظ المتمرس ، وحين تنحني لالتقاط القمامة ، يظهر أصل ثدييها الطليقين المتكبرين تحت الثوب القطني الخفيف . ولم تكن عينا الضابط اللتان تلمعان بوميض جشع تضيعان حركة واحدة من حركات صاحبة المطعم . لماذا تهيج دونيا أدريانا الملازم سيلفا إلى هذا الحد ؟ لم يكن ليتوما ليفهم ذلك . كان الملازم شاباً أبيض وغير ناضج تماماً ، ذا شارب أشقر ونظارة شمسية لا ينزعها عن عينيه إلا نادراً . بإمكانه أن يضع أي واحدة من بنات تالارا في جيبه . لكنه لم يكن يهتم بغير دونيا أدريانا . وقد اعترف بذلك لليتوما : «اللعنة . هذه البدينة تجعلني أصاب بالخناق» . من يفهم ذلك ؟ كان لها من العمر ما يجعلها تبدو كأمه ، وقد بدأ الشيب يلمع في ثنايا شعرها السبط ، ثم إنها بدينة ذات تكورات في كل أنحاء

جسدها . إنها واحدة من أولئك اللواتي يطلق عليهن « خاصرة الجنط » . وهي متزوجة من ماتياس ، صياد السمك الذي يخرج للصيد في الليل وينام في النهار . وفي القسم الخلفي من المطعم كان بيتها . ولها عدة أبناء راشدين يعيشون مستقلين ، ويعمل اثنان منهم مستخدمين في الانترناشيونال بترليوم كومباني .

- إذا ما بقيت تنظر إلى دونيا أدريانا هكذا فستهترئ عيناك يا سيدي الملازم . ضع نظارتك على الأقل .

- إنها تصبح صبية أشهى كل يوم - دمدم الملازم بذلك دون أن يرفع نظره عن ألياف مكنسة دونيا أدريانا . وفرك الخاتم المذهب الذي في بنصره ببنطاله وأضاف : - لست أدري ما الذي تفعله بنفسها ، ولكنها في الحقيقة تصبح أشهى وأجمل كل يوم .

كانا قد تناولا فنجاناً من حليب المعز وسندويتش جبن دسم بينما هما ينتظران سائق التكسي . كان الكولونيل ميندرياو قد حدد لهما الموعد في الثامنة والنصف . وكانا الزبونين الوحيدين في المطعم ، وهو هيكل ضعيف من القصب والحصائر والتوتياء ، فيه رفوف مملوءة بزجاجات وصناديق وعلب ، وبضع طاولات ملتوية ، وهناك في أحد الأركان موقد بريموس ، حيث تطهو دونيا أدريانا الطعام لزبائنها . ومن فتحة في الجدار ، دون باب ، تظهر في أقصى المحل الحجرة التي ينام فيها ماتياس بعد قضاء الليل في عرض البحر .

- لا تعرفين كمية الزهور التي رماك بها الملازم وأنت تكنسين يا دونيا أدريانا - قال ليتوما ذلك مبتسماً ابتسامة عذبة . وكانت صاحبة المطعم راجعة وردفاها يتأرجحان ، وهي ترفع المكنسة إلى أعلى : - يقول إنك أكثر نساء تالارا جاذبية على الرغم من سنواتك وكيلوغراماتك .

فهمس الملازم سيلفا وهو يضع قناع العاشق المغازل :

– أقول ذلك لأنني مقتنع به . ثم لأنه الحقيقة . والسيدة تعرف ذلك بما فيه الكفاية .

تنهدت دونيا أدريانا وهي تجلس على مقعد إلى جانب الكونتوار ، وتبدي وجهاً يكسوه الأسى .

– قل لهذا الملازم أن يقوم بعمله بدلاً من الإقدام على حماقات مع أم الأسرة . قل له ، بدلاً من مضايقة سيدات متزوجات ، ابحث عن قتلة ذلك الشاب .

فرقع الملازم لسانه ببذاءة :

– وإذا وجدتهم ، ماذا ؟ هل ستكافئينني بليلة أقضيها معك ؟ مقابل جائزة كهذه سأجدهم وآتي بهم مقيدين عند قدميك . أقسم لك .

« يقول ذلك وكأنه يتملكها في حضنه » ، فكر ليتوما . وكان يستمتع بألعاب الملازم ، لكنه تذكر النحيل فانتهى مرحه . لو أن هذا الكولونيل اللئيم ميندرياو يتعاون ، لكان الأمر أكثر سهولة . لو أنه يتدخل بجد ويضع كتفاً معهما . وهو الذي يملك المعلومات والحيثيات ، ويستطيع استجواب العاملين في القاعدة ، فإن دليلاً سيظهر وسيُلقى القبض على أولئك الملعونة أمهم . ولكن الكولونيل ميندرياو كان أنانياً . لماذا رفض مساعدتهم ؟ لأن الطيارين يظنون أنهم أمراء تجري في عروقهم دماء زرقاء . وهم يحتقرون الحرس الأهلي وينظرون إليه من فوق أكتافهم باستخفاف .

– أفلت أيها الوقح وإلا سأوقظ ماتياس – قالت دونيا أدريانا بغضب وهي تلوح بيدها . كانت قد مدت علبة سجائر من نوع إنكا إلى الملازم سيلفا ، فأمسك هذا بيدها – . اذهب للمس خادمتك أيها البارد ، وليس أم أسرة .

أفلتها الملازم ليشعل سيجارته ، وزايل الغضب دونيا أدريانا . إنها هكذا دائماً : تتوقد مثل عود ثقاب حيال المغازلة والأيدي الطويلة ،

ولكنها ربما تكون في أعماقها راضية عن ذلك . « جميعهن عاهرات إلى حد ما » ، فكر ليتوما بضيق .

وقالت دونيا أدريانا :

– لا حديث في القرية إلا هذا الحديث . إنني أعيش هنا منذ ولدت ، ولم يحدث قط ، طول السنوات التي عشتها ، أن شهدت تالارا عملية قتل شريرة كهذه . الناس هنا يقتتلون كما يشاء الله ، في مشاجرات متكافئة ، رجلاً لرجل . أما هكذا ، بالصلب والتعذيب ، فلم يحدث قط . وأنتم لا تفعلون شيئاً ، يا للعار .

قال الملازم سيلفا :

– إننا نفعل يا ميمتي . لكن الكولونيل ميندرياو لا يساعدنا . لا يسمح لي باستجواب زملاء بالومينو موليرو . هم يعرفون شيئاً دون شك . إننا ضائعون بسببه . لكن الحقيقة ستظهر ، عاجلاً أو آجلاً .

تنهدت دونيا أدريانا :

– مسكينة أم ذلك الفتى . الكولونيل ميندرياو يظن نفسه ملك روما ، تكفي رؤيته حين يأتي إلى البلدة وابنته ممسكة بذراعه . إنه لا يحيي ولا ينظر إلى أحد . وهي أسوأ منه . يا للخسة!

لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد ، ومع ذلك فقد كانت الشمس حارقة . كانت أحزمة من الأشعة الذهبية تخترق الحصائر وتنفذ من خلال فجوات القصب والتوتياء ، فيبدو المطعم وكأنه مُختَرَق برماح مضيئة تطفو فيها ذرات من الغبار وتحوم عشرات الذبابات . لم يكن ثمة أناس كثيرون في الشارع . وكان بمقدور ليتوما أن يسمع ، منخفضاً ، صوت ارتطام الأمواج بالحائل وتراجع الماء عن الشاطئ . كان البحر قريباً جداً ، وكانت رائحته تعبق في الجو . رائحة زكية تشرح الصدر ، لكنها مخادعة ، فهي توحي بشواطئ جميلة ، ذات مياه صافية ، بينما بحر تالارا مشبع دوماً ببقايا البترول ونفايات سفن الميناء .

هتفت دونيا أدريانا :

– يقول ماتياس إن صوت الفتى كان إلهياً ، وإنه كان فناناً .

فسأل الملازم :

– وهل كان دون ماتياس يعرف بالومينو موليرو ؟

قالت دونيا أدريانا :

– لقد سمعه وهو يغني في ليلتين ، بينما كان يعدّ شباك الصيد .

كان العجوز ماتياس كيريكوتيو ومساعداه يحملون الشباك والطعوم إلى الزورق ليون دي تالارا ، حين سمعوا فجأة ألحان جيتار . كان القمر صافياً جداً ومنيراً بحيث لم تكن هناك حاجة لإضاءة المصباح اليدوي لمعرفة أن تلك المجموعة من الأشباح التي تبدو على الشاطئ هم ستة طيارين . وحين بدأ الفتى بالغناء ، ترك ماتياس ومساعداه شباك الصيد واقتربوا . كان للفتى صوت شجي . يبعث انعكاسه الرغبة في البكاء ويكهرب الظهور في أغنية « روحان » ، وعندما انتهى صفقوا له . وطلب ماتياس كيريكوتيو الإذن بمصافحة يد المغني . وقال له مهنئاً : «لقد ذكرتني بشبابي . وبعثت فيّ الحزن» . وهناك علم أنه بالومينو موليرو ، أحد المجندين في الحملة الأخيرة ، وأنه من بيورا . وسمع ماتياس أحد الطيارين يقول : «يمكنك أن تغني من إذاعة بيورا يا بالومينو» . ومنذ ذلك الحين رآه زوج دونيا أدريانا مرتين أخريين ، على الشاطئ ذاته ، بين الزوارق الراسية ، في ساعة تجهيز القارب ليون دي تالارا للخروج إلى الصيد . وفي المرتين كان يتوقف عن العمل للاستماع إليه .

وأكدت دونيا أدريانا :

– إذا كان ماتياس قد فعل ذلك ، فليس من شك في أنه كان للفتى صوت ملاك . لأن ماتياس لا ينفعل بسهولة ، وهو أقرب إلى البرودة .

وفكر ليتوما : «لقد قدمت له المعلومة على طبق» .

وفعلاً ، لعق الملازم شفتيه كقط :

– أتعنين أنه لا يضاجع يا دونيا أدريانا ؟ أنا أستطيع تدفئتك إذا شئت . إنني مثل فحم متأجج .

ضحكت دونيا أدريانا :

– لستُ بحاجة لتدفئتك . حين أبرد ، أدفئ فراشي بزجاجات ماء ساخن .

خرخر الملازم سيلفا ، زاماً شفتيه باتجاه دونيا أدريانا وكأنه سيمتصها :

– الدفء البشري ألذ يا ميمتي .

في هذه الأثناء جاء دون خيرونيمو باحثاً عنهما . لم يتمكن من الوصول بالتكسي حتى المطعم ، فالطريق رملي وسيعلق فيه دون ريب ، ولهذا ترك سيارته الفورد على الطريق العام ، على بعد حوالي مئة متر . وَقّع الملازم سيلفا والشرطي إيصالاً بالفطور وودعا دونيا أدريانا . وفي الخارج لفحتهما الشمس دون رحمة . فبالرغم من أن الساعة كانت الثامنة والربع ، إلا أن الحر كان كحر الظهيرة . وفي الضوء المبهر ، بدت الأشياء والناس وكأنها ستذوب في أية لحظة .

قال دون خيرونيمو بينما هم يمشون وأقدامهم تنغرس في الأرض اللينة :

– تالارا تغص بالهمس . اعثر على هؤلاء القتلة وإلا سيشنقك الناس أيها الملازم .

فهز الملازم كتفيه :

– فليشنقوني . أقسم أنني لم أقتله .

بصق دون خيرونيمو حين وصلوا إلى التكسي :

- إنهم يتفوهون بأشياء . ألم تتقد أذناك ؟

ورد الملازم :

- أذناي لا تتقدان أبداً . ماذا يقولون مثلاً ؟

- إنكم تطمسون القضية لأن القتلة هم من الأسماك الكبيرة . - قال دون خيرونيمو وهو يدير ذراع تشغيل المحرك . ثم كرر وهو يغمز بإحدى عينيه : - هل توجد أسماك كبيرة حقاً أيها الملازم ؟

جلس الملازم على الكرسي الأمامي قائلاً :

- لا أعرف إن كانت كبيرة أم صغيرة ، وإن كانت أسماكاً عادية أم أسماك قرش . ولكنهم سيقعون الوقعة ذاتها . الملازم سيلفا يشخ شخة أولمبية على الأسماك الكبيرة يا دون خيرونيمو . والآن ، أسرع ، لا أريد الوصول متأخراً إلى موعد الكولونيل .

كان الملازم في الحقيقة رجلاً مستقيماً ، ولهذا السبب كان ليتوما يشعر نحوه بالإعجاب ، فضلاً عن التقدير . كان ظريفاً صريحاً في ظرافته ، وسكيراً إلى حد ما ، وحين يتعلق الأمر بالبدينة صاحبة المطعم ، فإنه يفقد رشده . لكن ليتوما ، وخلال الفترة التي عمل فيها تحت أمرته ، وجد فيه الشخص ذاته دوماً ، ففي جميع الشكاوى والنزاعات التي تصل إلى المفوضية ، كان يعمل لإقرار العدالة ، دون محاباة أحد .

- ما الذي اكتشفتموه حتى الآن أيها الملازم ؟ - كان دون خيرونيمو يطلق نفير السيارة ، لكن الصبية الرعاة ، والكلاب ، والخنازير ، والمعز ، والحمير التي كانت تعبر أمام التكسي لم تسرع ولو قليلاً .

فقال الملازم لاوياً فمه :

- ولا أي خراء .

وسخر سائق التكسي قائلاً :

- ليس هذا بالكثير .

سمع ليتوما رئيسه يكرر ما كان قد قاله هذا الصباح :

- ولكننا سنكتشف اليوم شيئاً ، إن ذلك يعبق في الهواء .

كانوا قد وصلوا إلى تخوم القرية . وإلى يمين الطريق ويساره كانت تظهر أبراج آبار البترول ، المنتصبة في الأرض الصخرية القاحلة . وفي البعيد ، تلمع سقوف القاعدة الجوية . «عسى أن نحصل على أي شيء» ، قال ليتوما ، كأنه الصدى . أيمكن التوصل يوماً إلى معرفة من الذي قتل النحيل ولأي سبب قتله ؟ وأكثر من شعوره بضرورة العدالة والانتقام ، كان يشعر بفضول نهم لرؤية وجوه القتلة ، وسماع الأسباب التي حدت بهم لفعل ما فعلوه ببالومينو موليرو .

في موقع حراسة القاعدة ، تفحصهما ضابط الخدمة من أعلى إلى أسفل ، وكأنه لا يعرفهما . وجعلهما ينتظران تحت الشمس الحارقة ، دون أن يفكر بإدخالهما إلى الظل في المكتب . وبينما هما ينتظران ، ألقى ليتوما نظرة حوله . يا لأبناء العاهرة ، كم هم منعّمون! يا حلاوة العيش والعمل في مكان كهذا! إلى اليمين تنتصب بانتظام بيوت الضباط المتماثلة ، المبنية من الخشب والمستندة إلى أعمدة ، والمطلية باللونين الأزرق والأبيض ، وقد ألحقت بها حدائق صغيرة مزروعة بالخبازيات المعتنى بها جيداً ، وعلى أبوابها ونوافذها شباك معدنية تمنع دخول الهوام . رأى سيدات مع أطفالهن ، وصبايا يسقين الزهور ، وسمع ضحكات سعيدة . إن الطيارين يعيشون على أحسن حال ، مثلهم مثل أمريكيّي شركة الانترناشيونال ، يا للعنة! إن رؤية كل شيء نظيف ومرتب تثير الحسد في النفس . بل إن لديهم مسبحهم الخاص ، هناك وراء البيوت . لم يره ليتوما قط ، لكنه تخيله . تخيله يغص بسيدات

وفتيات بملابس السباحة ، مستلقيات تحت الشمس أو مبتلات بالماء . وإلى اليسار كانت تقوم الأقسام الإدارية ، والعنابر ، والمكاتب . وفي أقصى الجهة المقابلة يوجد مدرج الطائرات . وقد كانت هناك عدة طائرات تشكل مثلثاً . وفكر : « إنهم يعيشون حياة مترفة » . مثل أمريكيّي الانترناشيونال ، فهؤلاء يعيشون وراء جدرانهم وأسوارهم كما في الأفلام . ويستطيع الأمريكيون والطيارون أن ينظروا إلى وجوه بعضهم البعض فوق رؤوس أهالي تالارا ، الذين يُشوون بالحر هناك في الأسفل ، في القرية المحصورة على ضفاف البحر الواسع والمشحم . فمن القاعدة ، وبالتحليق فوق تالارا ، يلمحون رابية صخرية ، وراء أسوار محمية بحراس مسلحين ليلاً ونهاراً ، حيث بيوت المهندسين والفنيين وكبار موظفي الانترناشيونال . ولهؤلاء أيضاً مسبحهم المزود بألواح للوثب وبكل شيء ، ويقال في القرية إن الأمريكيات يسبحن هناك وهن شبه عاريات .

أخيراً ، وبعد انتظار طويل ، سمح لهما الكولونيل ميندرياو بالدخول إلى مكتبه . وبينما هما يتوجهان نحو المكاتب ، بين ضباط وطيارين ، خطر لليتوما : « إن بعض هؤلاء يعرفون ما الذي حدث . اللعنة! » .

– ادخلا . – قال لهما الكولونيل من وراء مكتبه .

ضرب كل منهما كعبيه ببعضهما وهما عند العتبة ، ثم تقدما حتى وسط الغرفة . كان هناك على الطاولة علم صغير للبيرو ، وتقويم ، ومفكرة ، وملفات ، وأقلام ، وعدة صور للكولونيل ميندرياو مع ابنته وصور أخرى لها وحدها . إنها صبية ذات وجه طويل ووقح وشديد الصرامة . كل شيء كان مرتباً بهوس ، كما هي الخزائن ، والشهادات ، والخريطة الكبيرة للبيرو التي تشكل خلفية لشبح قائد قاعدة تالارا الجوية . كان الكولونيل ميندرياو رجلاً قصيراً ، مربوعاً . وفي شعره فتحتان تبدأان من الصدغين وتتقدمان حتى منتصف الرأس ، وله شارب

صغير يتخلله الشيب ، مشذب بدقة . وهو يعطي انطباعاً بالترتيب كما هو مكتبه . كان يتفحصهما بعينين رماديتين جامدتين ، دون أية بادرة ترحيب .

دمدم بتمدن يتعارض مع ملامحه الجليدية :

- بماذا يمكنني أن أخدمكما ؟

ورد الملازم باحترام شديد :

- لقد أتينا ثانية من أجل مقتل بالومينو موليرو . أتينا طالبين تعاونك يا سيدي الكولونيل .

قاطعه الكولونيل ميندرياو ، وفي صوته بقية من سخرية :

- ألم أتعاون في المرة الماضية ؟ ألم تكونا في هذا المكتب بالذات منذ ثلاثة أيام ؟ إذا كنتَ قد أضعتَ المذكرة التي أعطيتك إياها ، فإنني احتفظ بصورة عنها .

فتح بسرعة ملفاً كان أمامه ، وأخرج منه ورقة وقرأ بصوت خافت :

«موليرو سانتشيث ، بالومينو . مولود في بيورا يوم ١٣ شباط(فبراير)١٩٣٦ ، ابن شرعي لدونيا أسونتا سانتشيث والمرحوم دون تيوفيلو موليرو . أنهى دراسته الابتدائية كاملة ، ودراسته الثانوية حتى الثالث المتوسط في مدرسة سان ميغيل الوطنية في بيورا . مسجل في دورة ١٩٥٣, بدأ الخدمة في قاعدة تالارا يوم ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ ، في الوحدة الثالثة ، حيث تلقى تحت قيادة الملازم أدولفو كابرياتا التدريب إلى جانب المجندين الآخرين الذين بدؤوا خدمتهم . اختفى من القاعدة ليلة ٢٣-٢٤ آذار(مارس) ، ولم يلتحق بوحدته بعد قضائه يوم إجازة . أُعلن فاراً من الخدمة وأُبلغت السلطات المختصة بذلك» .

تنحنح الكولونيل ونظر إلى الملازم سيلفا :

- أتريد نسخة منه ؟

وفكر ليتوما : «لماذا تكرهنا ؟ ولماذا أنت مستبد إلى هذا الحد يا ابن الزانية ؟» .

ابتسم الملازم سيفا :

- لا داعي لها يا سيدي . فأنا لم أفقد المذكرة .

قطب الكولونيل حاجبيه وقال بفقدان صبر :

- إذن ؟ بماذا تريدني أن أتعاون ؟ المذكرة تقول كل ما نعرفه عن بالومينو موليرو . أنا شخصياً قمت بالتحقيق مع ضباط وطياري وتلاميذ وحدته . لم يره أحد منهم ، ولا أدري من يمكن أن يكون قد قتله ولا لماذا . لقد تلقى رؤسائي تقريراً مفصلاً وهم راضون عن ذلك . أما أنتم فلستم كذلك كما أرى . حسن ، هذه مشكلتك . الذين في القاعدة نظيفون من غبار وقش هذه القضية ولا يوجد أي شيء آخر للتقصي عنه هنا داخل القاعدة . لقد كان شخصاً منطوياً ، لا يجتمع مع أحد ، ولا يبوح بأسراره لأحد . وكما أرى ، فإنه لم يكن له أصدقاء مثلما لم يكن له أعداء في القاعدة . وهو ضعيف بعض الشيء على تحمّل التدريب ، حسب التقارير . وربما يكون قد فرّ لهذا السبب . ابحثوا في الخارج ، تقصوا عمن كان يعرفه في القرية ، مع من كان منذ فرّ إلى أن قتلوه . إنك تضيع وقتك هنا أيها الملازم . وأنا لا أستطيع أن أضيع وقتي .

أتخيف رئيسه نبرة الكولونيل ميندرياو الصارمة ؟ أتجعله ينسحب ؟ ولكن ليتوما رأى أن رئيسه لم يتحرك .

- ما كنا لنأتي لإزعاجكم يا سيدي الكولونيل لو لم تكن لدينا الأسباب - تابع الملازم كلامه وهو في وضع مستقر ، وكان يتكلم بهدوء ، ودون استعجال .

رعشت العينان الرماديتان رعشة واحدة ، وبدت على الوجه ابتسامة متوعدة :

- كان يجب البدء من هنا إذن .

- لقد قام الحارس ليتوما ببعض التحريات في بيورا يا سيدي الكولونيل .

خُيل لليتوما بأن قائد القاعدة قد ابتسم . وشعر بقلق متزايد وبدا له أنه لن يستطيع أبداً تقديم تقرير جيد لشخص عدائي كهذا . ولكنه تحدث وهو كالمخنوق . قال إنه علم في بيورا بأن بالومينو موليرو قد تقدم إلى الخدمة دون أن يكون مضطراً لعمل ذلك ، لأن خروجه من المدينة ، كما قال لأمه ، هو مسألة حياة أو موت . توقف عن الكلام قليلاً . أيسمعه ؟ إن الكولونيل ينظر متفحصاً ، ما بين الاستياء والرفق ، إلى صورة تبدو فيها ابنته محاطة بكثبان رملية وأشجار خروب . ثم رآه أخيراً يلتفت إليه :

- ما الذي يعنيه بمسألة الحياة أو الموت هذه ؟

فتدخل الملازم :

- فكرنا بأنه قد يكون فسَّر ذلك هنا ، حين تقدم للتطوع . وربما يكون قد أوضح لماذا كان عليه أن يغادر بيورا بتلك السرعة .

أيتظاهر رئيسه بالبلاهة ؟ أم أنه مرتبك مثله لأسلوب الكولونيل في معاملتهما ؟

مرّ قائد القاعدة بعينيه على وجه الضابط وكأنه يحصي ما فيه من خطوط . وكادت وجنتا الملازم سيلفا تتوقدان لهذه النظرة . ولكنه لم يبد أي انفعال ، وانتظر ، دون أية تعابير ، أن يتكرم الكولونيل بالتحدث إليه .

- ألم يخطر لك بأننا لو كنا نعرف شيئاً كهذا لضمناه في المذكرة ؟

- قال ذلك بتمهل متلذذ ، وكأن محدثيه يجهلان اللغة أو كأنهما من ذوي العاهات - . ألم تفكرا بأننا لو كنا نعرف ، هنا في القاعدة ، بأن بالومينو موليرو يشعر بأنه مهدد أو مطارد من قبل أحد ، لكنا أبلغنا الشرطة أو القضاء عن ذلك فوراً ؟

كان عليه أن يصمت ، لأن طائرة بدأت تهدر قريباً جداً . وتصاعد الضجيج وعلا ، وظن ليتوما بأن غشاءي أذنيه سينفجران . ولكنه لم يتجرأ على إغلاق مسمعيه .

- لقد توصل الحارس ليتوما إلى شيء آخر يا سيدي الكولونيل - قال الملازم بثبات بعد أن خف ضجيج مراوح الطائرة ، وكأنه لم يسمع أسئلة الكولونيل ميندرياو .

فقال هذا وهو يحني رأسه باتجاه ليتوما :

- آه ، هكذا ؟ أي شيء ؟

جلا ليتوما حنجرته قبل أن يجيب . وكانت ملامح الكولونيل الصفراوية قد أخرسته . فقال متلعثماً :

- لقد كان بالومينو موليرو متيماً بالحب . ويبدو أنه . . .

فسأله الكولونيل :

- ولماذا تتلعثم ؟ هل أصابك شيء ؟

فهمس ليتوما :

- لم تكن غراميات نظيفة تماماً . ولهذا السبب هرب من بيورا . أي أنه . . .

جعله الكولونيل ، الذي كانت ملامحه تصبح أكثر إبهاماً ، يشعر بأنه أحمق ويفقد صوته . فحتى لحظة دخوله المكتب كان يرى أن التكهنات التي توصل إليها في العشية مقنعة ، كما أن الملازم كان قد قال له إن تلك التكهنات لها وزنها فعلاً . لكنه الآن ، أمام نظرات قائد

القاعدة الجوية المرتابة والساخرة ، أحس بالتردد ، بل وبالخجل من تلك التكهنات .

وتدخل الملازم سيلفا لمساعدته :

– بكلمات أخرى يا سيدي الكولونيل ، ربما يكون بالومينو موليرو قد اصطدم في غرامياته بزوج غيور هدده بالقتل ، فتطوّع الفتى هنا لهذا السبب .

تفحصهما الكولونيل واحداً بعد الآخر ، وهو صامت وساهم . أية حماقة سيطلق الآن ؟

وقال أخيراً :

– من هو هذا الزوج الغيور ؟

فرد الملازم سيلفا :

– هذا هو ما نود معرفته . فإذا توصلنا إلى ذلك ، سنتوصل إلى كومة من الأشياء .

وعاد الكولونيل ميندرياو يتهجى الكلمات ، متوقفاً وقفات طويلة :

– وهل تظن بأني مطلع على غراميات مئات المجندين والطيارين الموجودين في القاعدة ؟

فاعتذر الملازم :

– ربما حضرتك غير مطلع يا سيدي . ولكن خطر لنا بأنه قد يكون هناك أحد في القاعدة . . أحد زملاء بالومينو موليرو في الوحدة . . أحد المدربين . . أحد ما . . .

وقاطعه الكولونيل من جديد :

– لا أحد يعرف شيئاً عن حياة بالومينو موليرو الخاصة . لقد

تحققتُ من ذلك بنفسي . كان انطوائياً ، لا يتكلم مع أحد عن أموره الخاصة . ألا يرد هذا في المذكرة ؟

فكر ليتوما بأن الكولونيل لا يهتم قلامة ظفر بمقتل النحيل . فهو لا يبدي الآن ، كما في المرة السابقة ، أي تأثر بهذه الجريمة . وقد كان يشير الآن بالذات إلى الجندي وكأنه لا أحد ، باحتقار لم يداره جيداً . أيكون ذلك لأنه فر من الخدمة قبل مقتله بثلاثة أو أربعة أيام ؟ إضافة إلى خشونته ، كان قائد القاعدة معروفاً باستقامته الفظيعة ، وهوسه بالأنظمة . وبما أن النحيل ، الذي ملّ بكل تأكيد من الانضباط والحبس قد فرّ من الخدمة ، فإن الكولونيل يرى فيه شخصاً لا وجود له . بل إنه يفكر بأنه كهارب من الخدمة ، يستحق ما لحق به .

وسمع الملازم سيلفا يقول :

- هناك شكوك يا سيدي الكولونيل بأن بالومينو موليرو كان يحب واحدة ممن يعشن في قاعدة بيورا الجوية .

ورأى في الوقت نفسه أن وجنتي الكولونيل الشاحبتين والحليقتين بدقة ، قد احمرتا ، وأن ملامح وجهه قد اختلّت والتهبت . ولكنه لم يقل ما كان يود قوله لأن الباب فُتح فجأة ، ورأى ليتوما عند حافته الفتاة التي في الصُور . كانت أنيقة . . أكثر أناقة مما هي عليه في الصور ، ذات شعر قصير مجعد ، وأنف أفطس ومترفع . وكانت ترتدي بلوزة بيضاء ، وتنورة زرقاء ، وحذاء رياضياً ، وتبدو مستاءة مثل أبيها .

قالت دون أن تدخل إلى المكتب ، بل ودون أن تتوجه بكلمة استئذان من الملازم وليتوما :

- إنني ذاهبة . هل يوصلني السائق أم أذهب على الدراجة ؟

كانت طريقتها في قول الأشياء تنم عن استياء مكبوح ، مثل الكولونيل وهو يتكلم . وفكر ليتوما : « من هذا الجذع ذاك الغصن » .

رقّ قائد القاعدة في الحال :

– إلى أين يا بنيتي ؟

ففكر ليتوما : «لم يكتف بعدم توبيخها لمقاطعتهم بتلك الطريقة ، ولعدم إلقائها التحية ، وللتحدث إليه بكل ذلك الجفاء فقط ، بل إنه يستخدم معها صوت حمامة هادلة» .

فردت الصبية بفظاظة :

– لقد أخبرتك في الصباح . سأذهب إلى مسبح الأمريكيين ، لأن المسبح هنا لن يمتلئ بالماء حتى يوم الاثنين ، هل نسيت ؟ هل يوصلني السائق أم أذهب على الدراجة ؟

فثغا الكولونيل :

– فليوصلك السائق يا أليسيا . ولكن ليرجع سريعاً ، فأنا بحاجة إليه . وأخبريه في أي ساعة عليه أن يعود لإحضارك .

أغلقت الفتاة الباب صافقة إياه واختفت دون كلمة وداع . ففكر ليتوما : « إن ابنتك تنتقم لنا » .

– بمعنى أنه . . .– بدأ الملازم الكلام ، لكن الكولونيل ميندياو منعه من المتابعة .

– هذا الذي قلته ما هو إلا هراء .– قال الكولونيل بحزم ، مستعيداً تورد وجنتيه .

– المعذرة يا سيدي الكولونيل ؟

التفت قائد القاعدة إلى ليتوما وأمعن النظر فيه وكأنه حشرة :

– ما هي الأدلة ؟ الشهود ؟ من أين خرجت لنا بأنه كانت لبالومينو موليرو غراميات مع سيدة في قاعدة بيورا الجوية ؟

فتلعثم الحارس مرتعباً :

- لا توجد لدي أدلة يا سيدي الكولونيل . لقد توصلت إلى أنه كان يذهب إلى القاعدة سراً ويعزف السرينادات .

فتهجى الكولونيل :

- إلى قاعدة بيورا الجوية ؟ أتعرف من يعيش هناك ؟ عائلات الضباط . ليست عائلات جنود الطيران ولا عائلات التلاميذ ، وإنما أمهات وزوجات وشقيقات وبنات الضباط فقط . أتلمح إلى أنه كانت لذلك الطيار غراميات خيانة زوجية مع زوجة أحد الضباط ؟

عنصري خرائي . هذا هو : إنه عنصري خرائي .

- قد تكون غرامياته مع إحدى الخادمات - سمع ليتوما الملازم سيلفا يقول ذلك . وقد شكره من أعماق روحه ، لأنه كان يحس بأنه محاصر وعاجز عن الكلام أمام احتدام الطيار البارد - . مع إحدى الطاهيات أو المربيات في القاعدة . نحن لا نلمح إلى شيء ، ونحاول فقط الكشف عن هذه الجريمة يا سيدي الكولونيل . هذا واجبنا . لقد أثار مقتل هذا الفتى الاشمئزاز في تالارا بأسرها . هنالك تقولات ، يقولون إن الحرس الأهلي لا يفعل شيئاً ، لأن أسماكاً كبيرة متورطة في القضية . إننا تائهون بعض الشيء ، ولهذا فإننا نسبر أية قرينة نجدها . وليس هذا لخلق سوء تفاهم يا سيدي الكولونيل .

وافق قائد القاعدة . ولاحظ ليتوما الجهد الذي يبذله ليخمد مزاجه المعكر .

قال الكولونيل وهو لا يكاد يفتح فمه :

- لست أدري إن كنت تعلم بأنني كنت قائد قاعدة بيورا الجوية إلى ما قبل ثلاثة شهور . لقد خدمت هناك لمدة سنتين . أعرف حياة تلك القاعدة وأسرارها ، لأنها كانت بيتي . والحديث عن وجود غراميات غير شريفة لجندي مع زوجة أحد ضباطي هو شيء لن أسمح لأحد بأن يقوله في حضوري ، إلا إذا كان قادراً على إثبات ذلك .

وتجرأ ليتوما على التمتمة :

- لم أقل إنها زوجة أحد الضباط . قد تكون خادمة ، كما قال الملازم . ألا توجد خادمات متزوجات في القاعدة ؟ لقد كان يذهب إليها خفية ليعزف السريناداث . . وعلى هذا لدينا إثباتات يا سيدي الكولونيل .

كانت جبهة الكولونيل تلمع بعرق نضحته منذ اقتحام ابنته المفاجئ للمكتب :

- حسن ، اعثرا على هذه الخادمة ، واستجوبا زوجها عن التهديدات المزعومة الموجهة إلى موليرو . وإذا ما اعترف ، أحضراه إلي . ولا تعودا إلى هنا من أجل هذه القضية ، إلا إذا كان لديكما شيء محدد تطلبانه مني .

نهض واقفاً بسرعة ، معلناً بذلك عن انتهاء المقابلة . ولكن ليتوما لاحظ أن الملازم لم يحيي ولم يطلب الإذن بالانصراف . بل قال دون تردد :

- لدينا شيء محدد نطلبه منك يا سيدي الكولونيل . نريد استجواب زملاء بالومينو موليرو في الوحدة .

ومن الاحمرار ، انتقل وجه قائد قاعدة تالارا الجوية إلى الشحوب ثانية . وأحاطت بعينيه دائرتان بنفسجيتان . وفكر ليتوما : « إنه مجنون فضلاً عن كونه ابن عاهرة . لماذا يتحول هكذا ؟ لماذا يصاب بهذا الحنق الداخلي ؟ » .

- سأشرح الأمر ثانية ، حيث أنك ، كما أرى ، لم تفهمه في المرة السابقة - كان الكولونيل يسحب كل كلمة بتثاقل وكأنها تزن عدة كيلوغرامات - . إن للمؤسسات العسكرية قوانينها ، ولها محاكمها التي تحاكم عناصرها وتصدر الأحكام بحقهم . ألم يعلموك ذلك في مدرسة الحرس الأهلي ؟ لا بأس ، سأعلمك إياه الآن إذن . عندما تقع

مشكلة من النوع الإجرامي ، فإن المؤسسات العسكرية هي التي تتولى التحقيق . وبالومينو موليرو مات في ظروف غامضة ، خارج القاعدة ، وهو في حالة فرار من الخدمة . وقد رفعتُ التقرير اللازم إلى القيادة . فإذا ارتأت القيادة أن هناك ما يستدعي إعادة التحقيق ، فستأمر بإجراء تحقيق جديد ، من خلال أجهزتها الخاصة ، أو تنقل الملف بكامله إلى السلطة القضائية . ولكن مادام لم يأت أمر من هذا النوع ، من وزارة الطيران ومن القيادة العليا للقوات المسلحة ، فلن أسمح لأي حارس أهلي بخرق القوانين العسكرية في قاعدة تحت أمرتي . هل هذا واضح ؟

فقال الملازم :

- تمام الوضوح يا سيدي الكولونيل .

أشار الكولونيل ميندرياو إلى الباب إشارة حازمة :

- تستطيعان الانصراف إذن .

ورأى ليتوما هذه المرة الملازم يضرب كعبيه ويطلب الإذن بالانصراف . ففعل مثله وخرجا . وفي الخارج ، اعتمرا قبعتيهما . ورغم أن الشمس كانت تلفح بشدة أكثر مما كانت عليه عند مجيئهما ، والجو كان اكثر عسفاً مما هو عليه في المكتب ، فقد أحس ليتوما بأن وجوده في الهواء الطلق منعش ومحرر . تنفس بعمق . اللعنة ، إن ذلك أشبه بالخروج من السجن . اجتازا باحات القاعدة باتجاه موقع الحراسة وهما صامتان . أيشعر الملازم سيلفا بالمذلة والمهانة التي يشعر بها هو للطريقة التي استقبلهما بها قائد القاعدة ؟

عند موقع الحراسة كان ينتظرهما عائق آخر . فدون خيرونيمو قد انصرف . ولم يكن أمامهما مفر من العودة إلى القرية سيراً على الأقدام . ساعة من المسير على الأقل ، سيتعرقان خلالها أغزر العرق وسيبتلعان الغبار .

انطلقا يسيران في منتصف الطريق ، وهما صامتان . وفكر ليتوما :

«سأنام بعد الغداء قيلولة لثلاث ساعات» . كان يتمتع بقدرة غير محدودة على النوم ، ساعة يشاء وفي أي وضع كان ، وليس هناك ما يشفيه من هذه الحالات المعنوية مثل إغفاءة جيدة . كان الطريق يتلوى ببطء ، منحدراً نحو تالارا في أرض ناعمة التراب ، لا وجود فيها لنبتة خضراء واحدة ، وسط أحجار وصخور من مختلف الأشكال والأحجام .

كانت القرية عبارة عن نقطة قاتمة ومعدنية ، هناك في الأسفل ، إلى جانب بحر أخضر رصاصي بلا أمواج . وبالكاد كان يمكن تمييز حافات البيوت وأعمدة السياج الشائك تحت وهج الشمس القوي .

- يا لهول اللحظة التي جعلنا نمر بها ، أليس كذلك يا سيدي الملازم ؟ - قال وهو يمسح جبهته بمنديل - . لم أعرف في حياتي شخصاً بهذه الصلافة . أتظنه يكره الحرس الأهلي لمجرد العنصرية أم أن لديه سبباً خاصاً ؟ أم تراه يعامل الجميع بهذه الصفاقة ؟ أقسم لك بأن أحداً لم يجعلني أبتلع لعاباً مثل هذا الأصلع .

فقال الملازم وهو يمسح بقميصه الخاتم الذهبي ذا الفص الأحمر :

- اللعنة يا ليتوما . لقد كان اللقاء مع ميندرياو رائعاً بالنسبة لي .

- أتسخر مني يا ملازمي ؟ إنه لأمر طيب أن تكون لديك رغبة في المزاح . أما أنا ، فقد وصلت روحي إلى قدمي بسبب هذه المقابلة .

ضحك الملازم :

- ما زلت غراً في هذه الصراعات يا ليتوما . عليك أن تتعلم الكثير . لقد كانت المقابلة عظيمة . أؤكد لك أنها كانت مفيدة جداً .

- لم أفهم شيئاً إذن يا سيدي الملازم . أنا رأيت الكولونيل وقد حولنا إلى زبالة على هواه ، وعاملنا بأسوأ مما يعامل به خدمه . وهل وافق على ما ذهبنا لنطلبه منه ؟

وعاد الملازم سيلفا إلى إطلاق قهقهة :

- هذا هو الظاهر فقط يا ليتوما . أما بالنسبة لي فإن الكولونيل قد تكلم مثل ببغاء مخمورة .

وضحك مجدداً وهو فاغر فاه ، ثم فرقع أصابعه ، ضاغطاً إياها .

- في البدء كنتُ أظن أنه لا يعرف شيئاً ، وانه ينغص حياتنا بحكاية القوانين هذه ، وبالحساسية العسكرية - أوضح الملازم سيلفا - أما الآن فأنا متأكد من أنه يعرف الكثير ، وربما يعرف كل ما حدث .

أعاد ليتوما النظر إليه . وأدرك أن عيني الملازم . تحت النظارة السوداء ، كانتا مثل وجهه وصوته : سعيدتين وكأنهما في عيد .

سأل :

- أيعرف من هم قتلة بالومينو موليرو ؟ أتظن أن الكولونيل يعرفهم ؟

قال الملازم موافقاً :

- لا أعرف ما الذي يعرفه ، ولكنه يعرف أموراً كثيرة . إنه يتستر على أحد . لماذا يصبح عصبياً هكذا لو لم يكن كذلك ؟ ألم تنتبه إلى ذلك ؟ كم أنت ضعيف الملاحظة يا ليتوما ، ولا تستحق أن تكون في موقع المسؤولية . هذا الغضب ، وهذا الهوس ، ما الذي تظن أنه يعنيه ؟ إنها ذرائع لإخفاء شعوره بالخوف . إنه كذلك يا ليتوما . لم يكن هو من جعلنا نتغوط واقفين . بل نحن من جعله يقضي وقتاً عصيباً .

ضحك سعيداً بالحياة ، وكان لايزال يضحك حين سمعا بعد لحظة صوت محرك يقترب . كانت شاحنة مطلية بألوان القاعدة الجوية الزرقاء . توقف السائق دوت أن يطلبا منه ذلك . وحياهما من النافذة ضابط صف شاب :

- هل أنتما ذاهبان إلى تالارا ؟ اصعدا ، سنوصلكما . حضرتك هنا ، معي أيها الملازم . وبإمكان الحارس الذهاب إلى الخلف .

في القسم الخلفي كان يوجد طياران ، لا بد أنهما ميكانيكيان ، فهما ملطخان بالشحم حتى أنفيهما . كانت الشاحنة مليئة بعلب الزيت وعلب الطلاء والفراشي .

قال أحدهما :

– وهل ستكشفان الحلوى أم ستدفنان الجريمة لحماية الأسماك الكبيرة ؟

وكان في سؤاله حقد كبير .

فأجاب ليتوما :

– سنكشفها لو أن الكولونيل ميندرياو يساعدنا قليلاً . ولكنه لا يكتفي بعدم مساعدتنا ، بل يعاملنا كالكلاب المسعورة كلما أتينا لمقابلته . أهو كذلك في معاملتكم في القاعدة ؟

– ليس بالرجل السيئ . إنه مستقيم ويسيّر القاعدة بنظام وكأنها مدفع . والسبب في مزاجه السيئ هو ابنته .

دمدم ليتوما :

– إنها تعامله بطرف قدمها ، أليس كذلك ؟

فقال الطيار الآخر :

– إنها متعجرفة ؛ لأن الكولونيل ميندرياو هو أبوها وأمها في الوقت نفسه . فقد ماتت أمها وهي لاتزال صغيرة . ورباها هو وحده .

توقفت الشاحنة أمام المفوضية . ونزل الملازم وليتوما منها .

ودعهما ضابط الصف الشاب قائلاً :

– إذا لم تكشفا القتلة فسيعتقد الجميع بأنكما تلقيّتما رشوة من الأسماك الكبيرة .

- لا تقلق أيها الفتى ، إننا في الطريق الصحيح . - سمع ليتوما الملازم سيلفا يتمتم من بين أسنانه ، في حين كانت الشاحنة قد اختفت وسط غبار له لون البيرة .

الفصل الرابع

وصلت إلى المفوضية ، عبر فم إحدى المومسات أخبار الفضائح التي كان يقوم بها ملازم صغير في ماخور تالارا . فقد جاءت « الذئبة البحرية » لتشكو من أن قَوَّادَها صار يضربها مؤخراً أكثر من المعتاد .

– لم أعد أجد زبائن بسبب الكدمات التي يتركها على جسدي . وهكذا لا آتيه بالمال ، فيضربني حينئذ من جديد . اشرح له الأمر أنت أيها الملازم سيلفا . إنني أحاول ذلك ، ولكنه لا يريد أن يفهم .

وروت لهما الذئبة البحرية أن الضابط الصغير قد حضر في الليلة الماضية إلى الماخور ، وكان وحيداً . وأنه سكر بكؤوس متتالية من خمر البيسكو التي كان يجرعها وكأنها كؤوس ماء . لم يكن يشرب الخمر كمن يريد أن يلهو ، وإنما طلباً للسكر السريع . وعندما سكر ، فتح بنطاله وبال على المومسات القريبات منه ، وعلى الزبائن وعلى القوادين . ثم صعد على الكونتوار وتابع استعراضه إلى أن جاءت شرطة الطيران لحمله . وكان الصيني لياو يُهدئ الناس كي لا يؤذوه بشيء : « إذا ما ضربتموه فستُلحقون الضرر بي وبأنفسكم ، لأنهم سيغلقون المحل . فهم الرابحون أبداً » .

لم يبد على الملازم سيلفا أنه أولى اهتماماً لرواية الذئبة البحرية . وفي اليوم التالي ، وبينما هما يتناولان الغداء في مطعم دونيا أدريانا ،

روى أحد الزبائن أنَّ ذلك الطيار قد كرر دعاباته في الليلة الفائتة وزاد عليها ، إذ قام هذه المرة بتهشيم زجاجات الشراب ، متعللاً بأنه يريد رؤية النجوم الزجاجية تتطاير في الهواء . وكان على شرطة القاعدة الجوية أيضاً أن تأتي لإخراجه من المحل . وفي اليوم الثالث ، حضر الصيني لياو بنفسه إلى مركز الحرس الأهلي متباكياً :

– لقد حطم هذه الليلة رقمه القياسي . فقد أنزل سرواله وأراد أن يتغوط في حلقة الرقص . إنه مجنون أيها الملازم . يأتي للاستفزاز فقط ، وكأنه يريد أن يضربوه . افعل شيئاً ، لأنك إن لم تفعل ، فأقسم لك أن أحداً سيجهز عليه . وأنا لا أريد أن يُدخلوني في مشاكل مع القاعدة .

فنصحه الملازم سيلفا :

– اذهب وأخبر الكولونيل ميندرياو أيها الصيني . فهذه المسألة تخصه .

أجابه الصيني :

– أنا لن أذهب إلى الكولونيل لأي سبب في الدنيا . إنني أخاف ميندرياو خوفاً لعيناً ، يقولون إنه صارم جداً .

– لقد تخوزقت إذن أيها الصيني . فأنا لا أملك أية سلطة على الطيارين . لو أنه كان مدنياً لتدخلت بكل سرور .

نظر الصيني لياو إلى ليتوما والملازم مفجوعاً :

– ألن تفعلا شيئاً ؟

فودعه الضابط قائلاً :

– سنصلّي من أجلك . وداعاً أيها الصيني ، تحياتي إلى الحريم .

ولكن ما إن انصرف لياو ، حتى التفت الملازم سيلفا إلى ليتوما

الذي كان يضرب بإصبع واحدة على آلة كاتبة قديمة من ماركة ريمنغتون ، ليطبع التقرير اليومي ، وعلق قائلاً بصوت دغدغ الحارس :

- إن قضية الطيار هذه محاطة بالغموض . ألا ترى ذلك يا ليتوما ؟

- أجل يا سيدي الملازم - قال الحارس موافقاً . ثم صمت قليلاً قبل أن يسأل : - ولماذا هي محاطة بالغموض ؟

- لا أحد يذهب للعربدة على هذا النحو في الحانة التي يرتادها أخطر الناس في تالارا ، لمجرد إظهار ظرافته ، ولأربعة أيام متتالية . إنني أشمّ شيئاً غريباً في الأمر . ألا تشمّ ذلك أنت ؟

فأكد ليتوما :

- بلى ياسيدي الملازم - ولم يكن قد فهم ما ألمح إليه رئيسه ، لكنه كان متلهفاً للسماع . . كان آذاناً مصغية ، فأضاف : - أي أن حضرتك تعتقد بأنه ؟

- بأنه علينا ، أنا وأنت ، أن نتناول كأساً من البيرة في محل لياو يا ليتوما . على حساب المحل طبعاً .

لقد تنقل ماخور الصيني لياو عبر أرجاء تالارا ، والكاهن يلاحقه . فما إن يكتشف الأب دومينغو مكانه حتى يطلب من البلدية إغلاقه . وبعد أيام قليلة من الإغلاق ، يعود الماخور للانبعاث في خص أو كوخ ، على بعد ثلاثة أو أربعة بيوت من مكانه السابق . وقد كسب الصيني لياو المعركة أخيراً . إنه الآن عند مخرج البلدة ، في مخزن من ألواح خشبية مقامة كيفما اتفق . كان محلاً بدائياً وواهناً ، بأرضيته الترابية التي تُرش بالماء يومياً كي لا يثور الغبار ، وسقفه المؤلف من ألواح توتياء مفلتة ، تَصرُّ مع الريح . أما حجرات المومسات ، في أقصى المحل ، فكانت مليئة بشقوق يتلصص منها الصبية والسكارى على الرجال والنساء المضطجعين في الداخل .

ذهب الملازم سيلفا وليتوما إلى الماخور سائرين على مهل ، بعد أن شاهدا فيلم رعاة بقر في سينما السيد فرياس التي تعرض الأفلام في الهواء الطلق (كانت الشاشة هي الجدار الشمالي للكنيسة ، مما خول الأب دومينغو صلاحية فرض رقابته على الأفلام) . كان ليتوما يجرجر جزمته على التراب الناعم ولا يكاد يرفعها . وكان الملازم يدخن .

– قل لي على الأقل ما الذي خطر لك يا سيدي الملازم . لماذا تظن بأن لسفاهات هذا الطيار علاقة بمقتل النحيل ؟

نفث الملازم سيلفا سحابة من الدخان :

– لم يخطر لي شيئاً . كل ما في الأمر هو أننا لا نعرف رأسنا من قدمينا في هذه القضية . ولهذا علينا أن نتلمس بأيدينا في كل الاتجاهات عساها تصطدم بشيء ولو مصادفة . فإذا لم يحدث ذلك ، فإنها ستكون ذريعة على الأقل لإلقاء نظرة على الماخور ومعاينة البضاعة التي هناك . بالرغم من أنني أعرف أني لن أجد هناك امرأة أحلامي .

ففكر ليتوما : « سيحدثني الآن عن البدينة . يا للهوس » .

وتذكر الملازم سيلفا بكآبة :

– أمس ليلاً أريتها إياه . حين خرجتُ للتبول عند الحظيرة ، خرجتْ هي حاملة الماء للخنزيرة . نظرتْ إليّ ، فأريتها إياه . أمسكته بكلتا يدي ، هكذا . « هذا لك يا ميمتي . فإلى متى ستتركينه جائعاً » .

ضحك بعصبية ، مثلما يحدث له كلما تحدث عن دونيا أدريانا .

فجاراه ليتوما :

– وماذا فعلتْ هي يا ملازمي ؟

كان يعلم أن مجاراته في الحديث عن دونيا أدريانا هو كمداعبة ملمس اللذة فيه .

فتنهد الملازم :

- لقد هربتْ راكضة بالطبع ، متصنعة الغضب . لكنها رأته . وأنا متأكد من أنها بقيت تفكر ، وربما حلمتْ به . ستقارنه بعضو دون ماتياس الذي لا بد أن يكون ميتاً . . مجرد جلدة . هذا سيلينها يا ليتوما . وستنتهي لحل حزامها لي . ويوم تحدث ذلك سأدعوك إلى سكرة بمشروب فاخر . هذا وعد .

- الحقيقة أنك شديد المثابرة يا ملازمي . وتستحق أن تستجيب لك دونيا أدريانا ، ولو كجائزة لك على إصرارك .

كان في الماخور أناس قليلون . وخرج الصيني لياو لاستقبالهما بسعادة :

- كم أنا ممتن لمجيئك أيها الملازم . كنت أعرف أنك لن تتخلى عني . تفضلا . تفضلا . لماذا تظن أن المحل خاو هكذا ؟ بسبب ذلك المجنون ، ولا سبب سواه . فالناس يأتون هنا ليلهوا ، لا ليُشتموا أو ليُبال عليهم . لقد انتشر الخبر ، وليس هناك من يريد الدخول في مشاكل مع طيار . لا حق له في ذلك ، أليس كذلك ؟

سأله الملازم :

- ألم يحضر بعد ؟

فقال الصيني لياو :

- إنه يأتي عادة في حوالي الحادية عشرة . سيأتي ، انتظراه .

أجلسهما على طاولة في الركن الأكثر انعزالاً وقدم لهما زجاجتي بيرة . اقتربت منهما عدة مومسات في محاولة لفتح حديث معهما ، ولكن الملازم صرفهن . لا يمكنهما الاستجابة لهن ، فقد جاءا هذه المرة ليحلا مشكلة رجال . وشكرت الذئبة البحرية ليتوما لأنه هدد قَوَّادها بزجّه في الزنزانة إذا ما استمر بضربها ، وقبلت الحارس من أذنه هامسة

له : « حين تود النوم معي ، فما عليك إلا المجيء وحسب » . وقالت لهما إنه لم يضربها منذ ثلاثة أيام .

وصل ملازم الطيران الصغير إلى الماخور عند منتصف الليل تقريباً . وكان ليتوما ورئيسه قد شربا أربع زجاجات بيرة . وقبل أن ينبهها الصيني لياو ، عرف ليتوما ، الذي كان يتفحص وجوه جميع القادمين الجدد ، أنه هو . شاب صغير السن ، نحيف ، أسمر ، شعره حليق على مستوى جلد الرأس تقريباً . كان يرتدي قميص الزي العسكري وبنطاله الكاكي ، ولكن دون شارات أو شرائط . دخل وحيداً ، دون أن يحيي أحداً ، ودون مبالاة برد الفعل الذي أثاره حضوره - وخزات مرافق ، نظرات ، غمزات ، وشوشة ما بين المومسات والزبائن القليلين - ومضى مباشرة ليستقر إلى جوار الكونتوار . وقال آمراً : « كأس قصير » . وأحس ليتوما بأن قلبه قد تسرع نبضه . لم يرفع عينيه عنه . ورآه يتناول كأس البيسكو في جرعة واحدة ويطلب آخر .

همست له الذئبة البحرية التي كانت تجلس على الطاولة المجاورة برفقة بحار :

- هكذا في كل ليلة . وبعد الكأس الثالثة أو الرابعة يبدأ الاستعراض .

لكنه بدأ هذه الليلة ما بين الكأس الخامسة والسادسة . لقد عدّ ليتوما كؤوس البيسكو التي كرعها . كان يرصده من فوق رؤوس الراقصين على إيقاع موسيقا تصدر عن جهاز راديو يعمل بالبطارية . كان الطيار يسند رأسه براحتيه ، ناظراً بثبات إلى الكأس التي بين ذراعيه ، وكأنه يحميها . لم يكن يتحرك . وبدا كما لو أنه غارق في تأمل يعزله عن المومسات ، وعن القوادين ، وعن العالم . ولم يكن يتحرك إلا لرفع الكأس بحركة آلية إلى فمه ، ثم لا يلبث أن يعود في الحال ليتحول إلى تمثال جامد . ولكن ليتوما انشغل عن المراقبة ما بين الكأسين الخامسة والسادسة ، وحين بحث عنه ثانية ، لم يجده عند

الكونتوار . فتطلع إلى جميع الأنحاء ووجده في حلبة الرقص . كان يتقدم بتصميم نحو زوج من الراقصين : المومس ذات الشعر الأحمر ورجل قصير يضع ربطة عنق ، إنما دون جاكيت ، ويتحرك وهو صاح ، متعلقاً بها وكأنه مشرف على الغرق . أمسك به الملازم الصغير من قميصه وأبعده بدفعة واحدة قائلاً له بصوت عال سمعه كل من هم في الماخور :

- عن إذنك : لقد جاء دوري الآن مع الآنسة .

انتفض ذو ربطة العنق وتطلع في جميع الاتجاهات وكأنه يطلب تفسيراً لما يحدث أو نصيحة بما يفعل . ورأى ليتوما الصيني لياو يشير للرجل بأن يبقى هادئاً . وهذا ما اختار الزبون عمله وهو يهز كتفيه . مضى إلى الجدار الذي تقف عنده المومسات ، ودعا ذات النمش للرقص ، مبدياً استياءه . في هذه الأثناء ، كان الملازم الصغير المغتصب ، يتقافز ويحرك يديه ويصعر وجهه . دون أن يبدي أدنى قدر من السعادة في تهريجه . أيريد لفت الأنظار إليه فقط ؟ لا ، إنه يريد الإزعاج أيضاً . فهذا القفز والهز ، وهذه الملامح المتبدلة التي يرسمها على وجهه ما هي إلا ذرائع ليضرب بمرفقيه ، وبكتفيه ، وبإليتيه كل من يقترب منه . وفكر ليتوما : « يا لأمه العاهرة » . متى سيتدخلان ؟ لكن الملازم سيلفا كان يدخن بهدوء شديد ، وينظر إلى الطيار بملامح الانشراح من خلال حلقات الدخان ، وكأنه يحتفي بعربدته . يا لصبر الناس! فالراقصون الذين يتلقون ضربات الطيار يبتعدون جانباً ، يبتسمون ، يهزون أكتافهم ويبدو على وجوههم أنهم يفكرون : « لكل مجنون دنياه ، وما علينا إلا الصبر » . عندما توقفت الموسيقا ، رجع الملازم الصغير إلى الكونتوار وطلب كأساً أخرى من البيسكو .

وسمع رئيسه يقول له :

- هل تعرف من يكون يا ليتوما ؟

- لا . وهل تعرفه أنت ؟

أومأ الملازم سيلفا بالإيجاب ، وقال بنبرة ماكرة :

- إنه عشيق ابنة ميندرياو . مثلما أقول لك . لقد رأيتهما يمسكان بأيدي بعضهما في المهرجان السنوي ، يوم عيد الطيران . ورأيتهما في عدد من أيام الآحاد ، في القداس .

فدمدم ليتوما :

- سيكون هذا هو السبب الذي جعل الكولونيل يتحمل هذه العربدات . لو أن شخصاً آخر فعل ذلك لزج به دون شك في السجن ، دون سؤال أو جواب ، لامتهانه سمعة المؤسسة .

فقال رئيسه :

- بمناسبة الحديث عن العربدات ، لا تضيع هذه اللقطة يا ليتوما .

كان الملازم الصغير يقف فوق الكونتوار ، حاملاً في يده زجاجة بيسكو ، وبهيئة من يريد إلقاء خطبة . فتح ذراعيه وصاح : « سِك ودفعة واحدة في صحة العاهرة التي أنجبتكم! » . ورفع الزجاجة إلى فمه وشرب جرعة طويلة جعلت معدة ليتوما تلتهب لمجرد التفكير بما سيحدث للمرء بتلقي مثل تلك النار في أحشائه . ولا بد أن معدة الملازم الصغير قد احترقت أيضاً ، إذ أنه لوى فمه وانكمش كما لو أنه تلقى ضربة قبضة يمنى . اقترب منه الصيني لياو وهو يعتذر ويبتسم ، محاولاً إقناعه بالنزول عن الكونتوار وبعدم اقتراف مزيد من الفضائح . لكن الطيار شتم أمه ، وقال له إذا هو لم يدس لسانه في مؤخرته فإنه سيحطم كل الزجاجات التي في المحل . فابتعد الصيني وعلى محياه تعابير فلسفية ، وجاء يتلطى إلى جوار ليتوما والملازم سيلفا :

- ألن تفعلا شيئاً ؟

فقرر الملازم :

- فليسكر أكثر .

كان الطيار يتحدى الآن القوادين والزبائن - الذين كانوا يتفادون النظر إليه ، ويتابعون الرقص والكلام والتدخين وكأنه غير موجود - ويطالبهم بأن يتعروا إذا كانوا رجالاً . لماذا يرتدون الملابس ؟ كان يومئ إليهم . أتخجلون من أن يرى الناس خصاكم ؟ أم أنكم لا تملكون خصى ؟ أم أنكم تملكونها صغيرة فتخجلون منها ؟ أما هو فكان فخوراً بخصيتيه .

- انظروا وعوا! - زمجر . وحل حزامه في لحظة واحدة ، ورأى ليتوما البنطال الكاكي ينزلق ، كاشفاً عن ساقين نحيلتين وغزيرتي الشعر . رآه يحرك ساقيه ليخلّص قدميه العالقتين بالبنطال . ولكن ، إما لأنه مخمور جداً أو لأنه كان يقوم بهذه الحركات غاضباً ، فقد شبك نفسه أكثر ، وهوى على وجهه من أعلى الكونتوار إلى حبة الرقص . وتفتت الزجاجة التي كانت في يده ، وارتطم بالأرض مثل كيس بطاطا . انفجرت موجة من الضحك . ونهض الملازم سيلفا واقفاً :

- الآن يا ليتوما .

تبعه الحارس . اجتازا حلبة الرقص ، وبقي الملازم الصغير مولياً ظهره والبنطال ملفوف عند كاحليه ، وسط دائرة من قطع الزجاج وشظاياه . كان يشخر فاقداً وعيه . وفكر ليتوما : «لقد ارتطم بالأرض ارتطامة ابن عاهرة» . أمسكاه من ذراعيه وأوقفاه . فراح يخبط بيديه ويطلق الشتائم ، بنصف لسان . وكان يريّل بغزارة مخمور . رفعا بنطاله ، وثبتا حزامه ، وأسنداه من إبطيه ، كل منهما من جانب ، وسحباه حتى المخرج . صفقت العاهرات ومعهن الزبائن سعداء بإخراجه .

سال ليتوما :

- ماذا سنفعل به يا سيدي الملازم ؟

كانت الريح تعصف في الخارج ، وصفائح الماخور تهتز . وكان

عدد النجوم أكثر مما كان عليه من قبل . وبدت أضواء تالارا كذلك وكأنها نجوم نزلت حتى البحر مستغلة حلول الظلام .

قال رئيسه :

– فلنأخذه إلى هذا الشاطئ .

وتلعثم الملازم الصغير :

– أفلتوني أيها الكلاب .

ولكنه بقي هادئاً ، ولم يقم بأدنى محاولة للتخلص من ذراعيهما .

فقال له الملازم بحنان :

– الآن سنفلتك يا أخي . اهدأ فقط ولا تغضب .

سحباه نحو خمسين متراً ، فوق أرض رملية فيها نباتات عشبية جافة ، إلى شاطئ حصوي ورملي . ركناه على الأرض وجلسا إلى جانبيه . كانت الأكواخ المجاورة مظلمة . وكانت الريح تحمل إلى عرض البحر صوت الموسيقا والصخب المنبعث من الماخور . وكان الجو يعبق برائحة الملح والسمك ، وإيقاع أمواج الشاطئ يبعث على النعاس مثل منوّم . أحس ليتوما بالرغبة في التكور على الرمل ، وتغطية وجهه بالقبعة ونسيان كل شيء . ولكنه جاء هنا للعمل ، يا للعنة . كان قلقاً وفزعاً وهو يفكر بأن هذا الجسد المركون عند قدميه سيكشف لهما أموراً رهيبة .

قال الملازم سيلفا :

– أتشعر بتحسن يا صديقي ؟

ورفع الطيارَ إلى أن جعله يجلس وأسنده بجسمه ، واضعاً ذراعه على كتفه ، وكأنه رفيق روحه ، وأضاف :

– أما زلت مخموراً أم أن السكر قد فارقك ؟

- ابن أي عاهر أنت وأي عاهرة هي أمك ؟ - تلعثم الطيار مسنداً رأسه إلى كتف الملازم سيلفا . ولم تكن عدوانية صوته لتتفق بأي حال مع انقياد جسده ، الرخو والمعوج ، المتكئ على رئيس ليتوما كاتكائه على مسند .

فقال الملازم سيلفا :

- أنا صديقك يا أخي . اشكرني لأني أخرجتك من الماخور . فلو أنك تابعت عرض خصيتيك لقطعوهما لك . وما الذي ستفعله في الحياة وأنت مخصي ، فكر بالأمر فقط .

صمت عن الكلام لأن الطيار أصيب بنوبة تشنجات في معدته . وبالرغم من أنه لم يتوصل إلى التقيؤ ، إلا أن الملازم أزاح له رأسه تحسباً ، وأماله نحو الأرض .

وتلعثم وهو لايزال غاضباً ، بعد أن زايله التشنج :

- لا بد أنك مخنث . هل أتيت بي إلى هنا لأقدم لك معروفاً بدس عضوي فيك ؟

ضحك الملازم سيلفا :

- لا يا أخي . لقد جئت بك لتتقدم لي معروفاً . ولكن ليس هذا .

وفكر ليتوما بتقدير : «لديه أسلوبه في سحب الأسرار من الناس» .

- وأي معروف تريدني أن أقدمه لك يا بن العاهرة ؟ - تجشأ الطيار وريّل حانقاً ، وعاد يستند ثانية إلى كتف الملازم سيلفا بأقصى قدر من الثقة ، مثل هر يبحث عن دفء هرة .

- أريدك أن تروي لي ما الذي حدث لبالومينو موليرو يا أخي . - همس الضابط بذلك وارتعش ليتوما .

لم يُبدِ الطيار أية ردة فعل ، لم يتحرك ، ولم يتكلم ، وكان يبدو - فكر ليتوما - وكأنه فقد القدرة على التنفس . وبقي متحجراً على تلك الحال لوقت لا بأس به . كان الحارس يراقب رئيسه . هل سيعيد عليه السؤال ؟ هل فهم أم أنه يتظاهر بعدم الفهم ؟

- فلتروِ لك العاهرة أمك ما حدث لبالومينو موليرو - نشج الطيار أخيراً بصوت خافت جداً ، مما جعل ليتوما يمط عنقه ليسمع . وكان لايزال مستنداً إلى الملازم سيلفا ويبدو عليه أنه يرتجف .

فرد عليه رئيس ليتوما بالصوت البشوش نفسه :

- أمي المسكينة لا تعرف من هو بالومينو موليرو . أما أنت فتعرف . هيا يا أخي ، قل لي ما الذي حدث .

- أنا لا أعرف شيئاً عن بالومينو موليرو! - صرخ الطيار ، وقفز ليتوما على الرمل - . لا أعرف شيئاً! لا شيء ، لا شيء!

كان صوته مكسوراً ، وكان يرتجف من رأسه حتى قدميه .

فواساه الملازم سيلفا بحنان كبير :

- أنت تعرف يا أخي . ولهذا تأتي لتسكر في الماخور كل يوم . ولهذا تمضي أشبه بمجنون . ولهذا تستفز قوادي المومسات وكأنك كاره حياتك .

فنبح الطيار ثانية :

- لا أعرف شيئاً! لا أعرف شيئاً!

وتابع الملازم وكأنه يهدل له :

- إروِ لي ما حدث للنحيل وستشعر بتحسن . أقسم لك يا أخي ، فأنا أعرف شيئاً من علم النفس . دعني أكون كاهن اعترافك . وثق أن هذا سيريحك .

كان ليتوما يتعرق ، ويحس بقميصه ملتصقاً بظهره . ولكن الجو لم يكن حاراً ، إنما أقرب إلى البرودة . كان الهواء يحرك بعض الأمواج التي تتكسر على بعد أمتار قليلة من الشاطئ ، بخيبة أمل واهنة . وفكر : « لماذا أنت خائف يا ليتوما ؟ اهدأ ، اهدأ » . كانت صورة النحيل عالقة في رأسه ، وكان يفكر : « الآن سأعرف من الذي قتله » .

- كن شجاعاً وأخبرني .- كان الملازم سيلفا يستحثه على الكلام :- ستشعر بتحسن . ولا تبك .

ذلك أن الملازم الصغير كان قد بدأ بالانتحاب مثل طفل رضيع ، ووجهه ملتصق بكتف الملازم سيلفا .

وتلعثم وهو يختنق بنوبة جديدة من الغثيان :

- لست أبكي للسبب الذي تظنه أنت . إنني أسكر لأن ابن العاهرة هذا طعنني بخنجر . إنه لا يسمح لي برؤية أنثاي! منعني من رؤيتها . وهي لا تريد رؤيتي كذلك ، يا للعنة . هل تظن بأن له الحق بعمل شيء ابن عاهرة كهذا ؟

مسح الملازم سيلفا بكفه على ظهر الطيار :

- ليس له الحق طبعاً يا أخي . ابن العاهرة الذي منعك من رؤية أنثاك هو ميندرياو ، أليس كذلك ؟

رفع الملازم الصغير رأسه الآن عن كتف رئيس ليتوما . وعلى ضوء القمر اللبني ، رأى الحارس وجهه الملطخ بالمخاط واللعاب . كانت حدقتا عينيه واسعتين ولامعتين ، وثملتين بالقلق . وكان يحرك فمه دون أن ينطق بكلمة .

وسأله الملازم سيلفا بالنبرة العادية نفسها التي كان سيتوجه بها إليه لو أنه سأله إن كانت السماء تمطر :

– ولماذا منعك الكولونيل من رؤية ابنته يا أخي . ماذا فعلت بها ؟ هل حبّلتها ؟

وريّل الطيار وهو يقول :

– هس ، هس ، اللعنة . لا تذكر اسمه ، اللعنة! أتريد خوزقتي ؟

فطمأنه الملازم :

– لا ، طبعاً لا يا أخي . ما أريده هو مساعدتك . إنني قلق لرؤيتك مخوزقاً على هذه الحال ، تسعى للسكر واقتراف الفضائح . إنك تدمر مستقبلك ، ألا تدرك هذا ؟ حسناً ، لن نذكر اسمه بعد الآن ، كلمة شرف .

فنشج الملازم الصغير وهو ينهار من جديد على كتف الملازم سيلفا :

– كنا سنتزوج عند صدور ترقيتي في العام المقبل . وقد جعلني ابن العاهرة أصدق أنه موافق وأننا سنتبادل الخواتم في يوم العيد الوطني . لقد خوزقني ، أترى ؟ هل من المسموح أن يكون هناك في الحياة خائن وأن يكون وغداً وسافلاً إلى هذا الحد ؟

كان قد تحرك وأخذ ينظر الآن إلى ليتوما . فدمدم الحارس مرتبكاً :

– لا يا سيدي الملازم .

فقال الطيار وهو يريّل ويهوي من جديد على الملازم سيلفا :

– ومن هو هذا القواد ؟ ما الذي يفعله هنا ؟ من أين خرج ابن العاهرة الآخر هذا ؟

فطمأنه الملازم سيلفا :

– لا أحد ، إنه مساعدي ، وهو شخص موثوق . لا تقلق بشأنه ، ولا بشأن الكولونيل ميندرياو كذلك .

– هس ، هس ، هس ، اللعنة ، لا تذكر اسمه .

وربت الملازم بيده على ظهر الطيار :

– معك حق ، لقد نسيت . ولكن جميع الآباء يتألمون لزواج بناتهم . لا يريدون فقدانهن . أتح له بعض الوقت ، وسيرق أخيراً وتتزوج من أنثاك . أتريد نصيحتي ؟ إملأها! وحين يراها حبلى ، لن يجد العجوز مفراً من الموافقة على الزواج . والآن ، حدثني عن قضية بالومينو موليرو .

وفكر ليتوما : « هذا الرجل عبقري » .

نشج الطيار ، وداهمته نوبة غثيان أخرى من تلك التي يختلط بها فؤاق السكر ، وفكر ليتوما بأن قميص رئيسه قد تلوث بالقيء دون شك .

– إنه لا يرقّ أبداً لأنه ليس بشـــراً . لا روح له ، أترى ؟ إنه مسخ ، لعب معي كقواد ، أترى ؟ هل فهمت الآن لماذا أنا ساخط ؟ هل فهمت لماذا لم يبق أمامي سوى السكر حتى الثمالة كل ليلة ؟

وقال الملازم سيلفا :

– أنا أفهم ذلك بالطبع يا أخي . إنك ترتعش ويحزّ في نفسك أن يمنعوك من رؤية أنثاك . ولكن من الذي يخطر له أن يضاجع ابنة ميندرياو ، عفواً ، أعنى هذا الطاغية . هيا يا أخي ، حدثني عن قضية بالومينو موليرو .

– أنت تظن نفسك ذكياً جداً . أليس كذلك ؟ – تلعثم الطيار وهو يرفع رأسه . كان يبدو وكأن السكر قد فارقه . وسارع ليتوما إلى الإمساك به ، إذ بدا له أنه سيعتدي على رئيسه . ولكن لا ، لقد كان

مخموراً جداً ، وغير قادر على النهوض ، فانهار مرة أخرى على الملازم سيلفا . وواساه هذا قائلاً :

- هيا يا أخي . ستشعر بالراحة ، ستسلو مشكلتك . ستنسى أنثاك للحظة . هل قتلوه لأنه تحرش بزوجة أحد الضباط ؟ أكان هذا هو السبب ؟

فزمجر الطيار مرتعباً :

- لن أقول لك أية لعنة عن بالومينو موليرو . وإن كنت تريد الحصول على أي شيء ، فاقتلني قبل ذلك .

فأنبّه الملازم برقة :

- يا لك من ناكر للجميل . لقد أخرجتك من الماخور ، حيث كانوا سيقطعون خصيتيك . وجئت بك إلى هنا ليفارقك السكر وترجع إلى القاعدة سليماً كي لا يعاقبوك هناك . وها أنذا أجعل من نفسي منديلاً لك ، ووسادة وممسحة دموع . انظر فقط كيف فعلت بي بريالتك . بينما أنت لا تريد أن تخبرني لماذا قتلوا بالومينو موليرو . هل تخاف شيئاً ؟

أصاب ليتوما القنوط «لن يحصل منه على شيء» . لقد أضاعا الوقت سدى ، والأسوأ من ذلك أنه بنى أوهاماً . وهذا السكير لن يخرجهما من المتاهة .

أنَّ الطيار من بين أسنانه :

- وهي كذلك ليست سوى براز . - أصيب بنوبة تشنج في معدته ، ثم أضاف بضيق : - ورغم كل ما فعلته بي ، فإنني أحبها . من يفهم هذا! أجل ، اللعنة . إنها هنا ، في قلبي . يا للنكبة .

سأله الملازم سيلفا :

- ولماذا تقول إن أنثاك هي براز أيضاً يا أخي . عليها أن تطيع أباها ، أليس كذلك ؟ أم أنها لم تعد تحبك ؟ هل طردتك ؟

- هي لا تعرف ما تريد ، إنها صوت سيدها ، كلب الأسطوانة ، هكذا هي . إنها تفعل وتقول ما يريده المسخ الرهيب . كان هو من طردني ، إنما بفمها هي .

حاول ليتوما أن يتذكر الفتاة ، مثلما رآها أثناء ظهورها القصير في مكتب أبيها . كان الحوار الذي دار بينهما حاضراً في ذهنه ، ولكنه لم يستطع أن يتذكر إن كانت جميلة . فهي تتراءى له شبحاً ضئيلاً ، ولا بد أن تكون ذات شخصية قوية بسبب الطريقة التي تكلمت بها ، وهي متغطرسة بكل تأكيد . إنها وجه ينظر إلى الجميع من فوق عرش ، أليست كذلك ؟ لا بد أنها مسحت الأرض بالطيار المسكين . . . يا للحال التي تركته فيها .

وكرر الملازم سيلفا مرة أخرى :

- اروِ لي قضية بالومينو موليرو يا أخي . شيئاً منها على الأقل . قل لي على الأقل إن كانوا قد قتلوه لأنه تورط مع زوجة أحد الضباط هناك في بيورا . هيا ، قل ولو هذا فقط .

تلعثم الطيار :

- قد أكون سكران ولكنني لست نذلاً ، ولن أسمح لك بأن تعاملني كصبيك .

توقف قليلاً عن الكلام ، ثم أضاف بمرارة :

- ولكنك إذا أردت أن تعرف شيئاً ، فإنني أقول لك إنه بحث بنفسه عما حل به .

فهمس الملازم :

- تعني بالومينو موليرو ؟

- قل ابن العاهرة بالومينو موليرو ، أفضل .

فدمدم الملازم وهو يمسح على ظهره :

– حسن ، ابن العاهرة بالومينو موليرو ، إن كنتَ تفضل هذا ، وكيف بحث عما حلّ به ؟

تنحنح الملازم الصغير بغضب :

– لأنه نقر عالياً جداً . . لأنه دخل قنّاً ليس له . وهذه أمور يُدفع ثمنها . وقد دفع الثمن ، وأحسن صنعاً بدفع الثمن .

اقشعرّ جلد ليتوما . فهذا الرجل يعرف . إنه يعرف من هم قتلة النحيل ولماذا قتلوه .

وردد الملازم سيلفا كأنه الصدى ، بنبرة أكثر مودة من كل ما سبق :

– أجل يا أخي ، فمَن ينقر عالياً ، ومن يدس نفسه في قنّ الغير سيدفع الثمن عموماً . وإلى أي قن دخل بالومينو ؟

– في قنّ العاهرة التي أنجبته – قال الطيار وهو ينفصل عن مسنده . وكان يجاهد لينهض . رآه ليتوما يقعي ، ويقف على قدميه منحنياً ، ثم ينهار ويبقى مستنداً على أربع قوائم .

وتابع الملازم سيلفا بود ودون كلل :

– لا ، لم يكن في ذلك القن يا أخي ، وأنت تعرف ذلك . القنّ الذي دخله كان هناك ، في بيورا ، في بيت من بيوت القاعدة الجوية . أحد تلك البيوت المجاورة للمطار . أليس هذا صحيحاً ؟

رفع الملازم الصغير رأسه وهو لايزال يجثو على أربع . وخيل لليتوما بأنه سينبح . كان ينظر إليهما بنظرة زجاجية وكئيبة ، وبدا عليه أنه يقوم بمجهود عظيم ليسيطر على سكره . وكان يرمش دون توقف .

– من قال لك هذا يا بن العاهرة ؟

فضحك الملازم سيلفا :

– هنا تكمن المسأله يا أخي ، كما يقول كانتينفلاس . فلستَ وحدك من يعرف بعض الأمور . أنا أعرف بعضاً منها كذلك . سأخبرك بما أعرفه ، وتخبرني أنت بما تعرفه ، فنحل اللغز معاً خيراً مما يفعل الساحر مندراك .

– أخبرني أنت أولاً بما تعرفه عن قاعدة بيورا – تلعثم الطيار . وكان لايزال جاثياً على أربع . وفكر ليتوما بأن السكر قد فارقه الآن ، لطريقته في الكلام ، ولاسيما ، لأن الخوف على ما يبدو قد زايله أيضاً .

وقال الملازم سيلفا :

– بكل سـرور يا أخي . ولكن تعـال ، اجلس ، دخن هذه السيجارة . إن السكر يفارقك ، أليس كذلك ؟ هذا أفضل .

أشعل سيجارتين وقدم العلبة لليتوما . فأخرج الحارس سيجارة وأشعلها .

– انظر ، أنا أعرف أنه كان لبالومينو حبيبة هناك في قاعدة بيورا . وأنه كان يعزف لها سيرنادات بجيتاره ، وكان يذهب إلى هناك في الليل ، وخفية ، ليغني لها بصوته الجميل كما يقولون . كان يغني لها أغنيات بوليرو ، ويبدو أن هذا النوع من الغناء كان اختصاصه . هذا هو كل شيء ، لقد أخبرتك بما أعرفه . الآن دورك . لمن كان يعزف بالومينو موليرو السيرنادات ؟

هتف الطيار :

– لا أعرف شيئاً .

كان مذعوراً من جديد ، وكانت أسنانه لاتزال تصطك .

فشجعه رئيس ليتوما :

- بل أنت تعرف . تعرف أن زوج تلك التي كان يعزف لها قد ارتاب بالأمر ، أو أنه اكتشفه ، وتعرف أن موليرو قد اضطر لمغادرة بيورا هرباً . ولهذا جاء إلى هنا أيضاً ، ولهذا السبب ورط نفسه في تالارا . لكن الزوج الغيور اكتشف مكانه ، وجاء في طلبه وقضى عليه . للسبب الذي قلته أنت يا أخي . . لأنه نقر عالياً ، لأنه دخل في قن آخر . هيا ، لا تصمت هكذا . من الذي قتله ؟

أصابت الطيار نوبة أخرى من التشنجات المعوية . وقد تقيأ هذه المرة ، وهو منكمش على نفسه بضجة استعراضية . وعندما انتهى ، مسح فمه بيده وبدأ يتحامل . ثم انتهى إلى النحيب كصبي . أحس ليتوما بالقرف ، وبشيء من الأسى أيضاً . فقد كان المسكين يتعذب ، وهذا بادٍ عليه .

قال الملازم متأملاً ، وهو يشكل حلقات من دخان سيجارته :

- ستتساءل لماذا أنا مصرّ على معرفة الفاعل . إنه الفضول يا أخي ، ولا شيء سواه . إذا كان قاتله من أفراد قاعدة بيورا فما الذي أستطيع عمله أنا ؟ لا شيء . فأنتم لكم قوانينكم ، لكم امتيازاتكم ، وأنتم تحاكمون أنفسكم بأنفسكم . ليس بإمكاني أن أدسَّ ملعقتي في طبقكم . إنه مجرد فضول ، أترى ؟ ثم إنني سأقول لك أمراً : لو أنني كنت متزوجاً من بدينتي ، وجاء أحدهم ليعزف لها سيرنادا ، أو ليغني لها بوليرو رومنسي ، لكنت قتلته أيضاً . من الذي برّد بالومينو يا أخي ؟

حتى في لحظة مثل هذه يتذكر الملازم دونيا أدريانا . إنها داء . انتحى الملازم الصغير جانباً ، متفادياً الأرض الملوثة بقيئه ، وجلس على الرمل ، متقدماً بضعة سنتمترات من ليتوما ورئيسه . وتذكر ليتوما هذا الإحساس بالخواء الذي ترافقه دغدغته ، هذا التوعك الشامل ، الذي يعم الجسم ، والذي يعرفه جيداً في أزمانه وهو منيع .

وفجأة سأل الطيار ، وكان كلامه حتى الآن ممزوجاً بالخوف حيناً ،

وبالغضب حيناً آخر ، أما الآن فكان ممزوجاً بالأمرين معاً :

- وكيف عرفت إنه كان يذهب ليعزف سيرنادات في قاعدة بيورا ؟ أية لعنة نقلت لك هذا ؟

في هذه اللحظة ، انتبه ليتوما إلى أن أشباحاً تقترب . وبعد ثوان كانت تلك الأشباح تقف على شكل نصف دائرة من حولهم . كان عددهم ستة . وكانوا يحملون البنادق والهراوات ، وعلى ضوء القمر ، تعرف ليتوما على الشارات القماشية الموضوعة على العضد . إنهم من الشرطة الجوية ، فهم يجوبون ليلاً الحانات ، وصالات الرقص والماخور بحثاً عمن يثير الشغب من رجال القاعدة .

- أنا الملازم سيلفا ، من الحرس الأهلي . ما الذي جرى ؟

- إننا قادمون لاقتياد الملازم دوفو - رد أحدهم . ولم تكن رتبته ظاهرة . . لا بد أنه ضابط صف .

فزمجر الطيار :

- حين تذكر اسمي عليك أن تغسل فمك أولاً - وتمكن من النهوض والوقوف على قدميه ، رغم أنه كان يترنح وكأنه سيفقد توازنه في أية لحظة - . أنا لا اسمح لأحد باقتيادي إلى أي مكان ، اللعنة .

فرد رئيس الدورية :

- إنها أوامر الكولونيل يا سيدي الملازم . بعد إذنك ، ولكن علينا أن نقتادك .

تنحنح الطيار متلفظاً بشيء وانهار على الأرض ، كما في لقطة مأخوذة بكاميرا بطيئة . أعطى آمر الدورية أمراً فاقتربت الأشباح . أمسكوا الملازم دوفو من ذراعيه وساقيه وحملوه . وتركهم هو يفعلون ذلك ، مدمدماً بكلمات غير مفهومة .

رآهم ليتوما والملازم سيلفا وهم يختفون في الظلام . وبعد قليل ،

انطلقت سيارة جيب من بعيد . لا بد أن الدورية قد أوقفت السيارة إلى جانب الماخور . أنهيا تدخين سيجارتيهما وهما مستغرقان في أفكارهما . وكان الملازم هو أولهما بالنهوض . للرجوع . ولدى مرورهما قريباً من الماخور ، سمعا صوت موسيقا وضوضاء وضحكات . يبدو أنه يغص بالزبائن .

قال ليتوما :

– أنت رهيب في جعلك الناس يتكلمون . كم أحسنت مسايرته ، إلى أن استخرجت منه بعض الأشياء!

فأكد الملازم :

– لم أستخرج منه كل ما يعرفه . لو أنه كان لدينا مزيد من الوقت ، فربما كان أفضى لنا بكل شيء – ثم بصق وتنفس بشهية ، وكأنه يريد أن يملأ رئتيه بالهواء البحري – . سأقول لك شيئاً يا ليتوما . أتعرف ما الذي أشمه ؟

– ماذا يا سيدي الملازم ؟

– إن جميع من في القاعدة يعرفون ما الذي حدث . من البواب وحتى ميندرياو .

فوافق ليتوما :

– لا أستغرب ذلك . هذا هو الانطباع الذي أثاره فيّ الملازم دوفو على الأقل . فهو يعرف جيداً من الذي قتل النحيل .

سارا صامتين لفترة لا بأس بها ، في تالارا النائمة . معظم البيوت الخشبية كانت مظلمة ، ولم تكن أضواء القناديل تظهر إلا في بعض البيوت المتفرقة هنا وهناك . وكذلك في الأعلى ، وراء السياج المعدني ، في المنطقة المحظورة ، كان الظلام شاملاً أيضاً .

وفجأة ، تكلم الملازم بصوت مختلف :

- ساعدني في تنفيذ حيلة يا ليتوما . قم بجولة على شاطئ الصيادين ، وانظر إذا كان الزورق ليون دي تالارا قد أبحر . إذا كان مبحراً ، فما عليك إلا أن تذهب للنوم وحسب ، أما إذا كان على الشاطئ ، فتعال إلى المطعم لتنبهني .

فقال ليتوما مذهولاً :

- كيف يا سيدي الملازم . أتعني أنك . . .

ووافق الملازم بابتسامة شبه عصبية :

- أعني أنني سأحاول . لست أدري إذا كانت المعجزة ستقع هذه الليلة . قد لا يحدث ذلك . ولكنني لن أخسر شيئاً في المحاولة . إنها أصعب مما ظننت بكثير . إنما سيحصل يوماً ، لأن - أتعلم ؟ - هذا المسيحي لن يموت قبل أن يرمي هذه البدينة وقبل أن يعرف من هم قتلة بالومينو . إنهما هدفاي في الحياة يا ليتوما . إنهما أهم من الترقية ، حتى لو لم تصدق ذلك . هيا ، اذهب .

فكر ليتوما : « كيف يجد الحماس لهذه الأمور في هذا الوقت » . وتخيل دونيا أدريانا ، منكمشة على نفسها في سريرها ، حالمة ، غافلة عن الزيارة التي ستتلقاها . آه ، آه ، اللعنة ، يا للمجنون الذي تمخض عنه الملازم سيلفا . وإذا ما لانت له هذه الليلة ؟ لا ، لقد كان ليتوما متأكداً من أن دونيا أدريانا لن تتيح له هذه المتعة أبداً .

ومن بين أكواخ القصب المظلمة خرج كلب لينبح عليه . فأفزعه بضربة من قدمه . إن رائحة السمك تعبق في تالارا دوماً ، ولكن الرائحة في بعض الليالي ، كهذه الليلة ، تزداد حتى تصبح غير محتملة . أحس ليتوما بنوع من الدوار . وسار لبعض الوقت مغطياً أنفه بالمنديل . كانت قوارب كثيرة قد خرجت للصيد ، ولم يبق على الشاطئ إلا حوالي ستة قوارب ، ليس ليون دي تالارا بينها . تفحصها واحداً واحداً ليتأكد .

وحين كان يتأهب للانصراف ، لفت انتباهه وجود حزمة مركونة فوق أحد الكثبان الرملية .

دمدم قائلاً :

- مساء الخير .

وقالت المرأة بضيق لأنها قُوطعت :

- مساء الخير .

- ولكن ، ما الذي تفعلينه هنا في مثل هذه الساعة يا دونيا أدريانا .

كانت صاحبة المطعم ترتدي كنزة سوداء فوق فستانها وتمضي حافية ، كعادتها .

- جئت بالطعام لماتياس . وبعد أن أبحر ، بقيت لاستنشاق قليل من الهواء . لا أشعر بالنعاس . وأنت يا ليتوما ؟ ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ أهو موعد غرامي ؟

انفجر الحارس بالضحك . جلس القرفصاء مقابل دونيا أدريانا ، وبينما هو يضحك . تحت الضوء الخافت - إذ أن غيمة حجبت القمر - كان يتفحص هذه التكوينات الوافرة ، السخية ، التي طالما تاق إليها الملازم سيلفا .

- م تضحك ؟ هل جُننت أم أنك سكران ؟ آه ، لا بد أنك كنت في محل الصيني لياو .

واصل ليتوما الضحك :

- لا شيء من هذا يا دونيا أدريانا . لو أخبرتك فستموتين من الضحك أيضاً .

- أخبرني إذن . ولا تضحك وحدك لأنك تبدو سخيفاً .

كانت صاحبة المطعم طيبة المزاج ومتحمسة دوماً . ولكن ليتوما لاحظ أنها حزينة بعض الشيء هذه الليلة . كان ذراعاها متقاطعين على صدرها بينما إحدى قدميها تعبث بالرمل .

سألها بجدية :

– هل أنت متضايقة من شيء يا دونيا أدريانا ؟

– لست متضايقة . إنني قلقة يا ليتوما . ماتياس لا يريد الذهاب إلى المستوصف . إنه عنيد جداً ولا أستطيع إقناعه .

توقفتْ قليلاً وتنهدت . ثم روت له أنه منذ شهر على الأقل ، والشخير لا يفارق زوجها ، وأنه يبصق دماً حين تأتيه نوبات سعال قوية . وقد جاءته ببعض الأدوية من الصيدلية وجعلته يتناولها بما يشبه الإرغام ، ولكنها لم تفده في شيء . ربما هو مريض بمرض خطير ولا يمكن شفاؤه بأدوية الصيدلية هذه . وقد يحتاج فجأة لصورة شعاعية أو لعملية جراحية . والعنيد لا يريد أن يعرف شيئاً عن المستوصف ويقول إن المرض سيزول ، وإن الذهاب إلى الطبيب من أجل سعلة هو من شؤون المنعمين . ولكنه لا يستطيع أن يجعلها تصمت : إن حالته أسوأ مما يدعي ، لأنه يتكلف مشقة أكبر كل ليلة من أجل الخروج إلى الصيد . وقد منعها من إخبار أولادهما عن بصقات الدم التي يبصقها . ولكنها ستخبرهم بذلك يوم الأحد ، حين يأتون لزيارتها . لترى إن كانوا سيقودونه إلى الطبيب .

– أنت تحبين دون ماتياس كثيراً ، أليس كذلك يا دونيا أدريانا ؟

فابتسمت صاحبة المطعم :

– لقد عشت معه نحو خمس وعشرين سنة . يبدو لي كذباً أن كل ذلك الزمن قد مضى يا ليتوما . لقد تزوجني ماتياس وأنا لاأزال غَضَّة ، بالكاد خمس عشرة سنة . كنت أخافه ، لأنه كان أكبر مني بكثير . ولكنه لاحقني كثيراً حتى صار يجد متعة في ذلك . كانوا

يقـولون إنه مـسن ، وإن الـزواج لن يدوم طويلاً . وقـد أخطؤوا كـمـا ترى . لقـد دام زواجنا ، وعـشنا رغم كل شيء بـحـالة جـيـدة . لماذا تسألني إن كنتُ أحبه ؟

– سأشعر الآن ببعض العار لو قلت لك ما الذي جئت أفعله هنا يا دونيا أدريانا .

توقـفت القـدم التي كانـت تعبث بـالرمل على بعد ميلمتـرات من حيث كان يقرفص الحارس .

– دعك من الأسرار يا ليتوما . هل تطرح عليّ أحجية ؟

– لقد بعث بي الملازم لأرى إن كان دون ماتياس قد خرج للصيد – همس ، خافضاً صوته وبنبرة خبيثة . ثم توقف منتظراً ، وبما أنها لم توجه إليـه أي سؤال ، أضاف :– لأنه ذهب لزيارتك يا دونيا أدريانا ، وهو لا يريد أن يأتي زوجك ويضبطه . لا بد أنه يطرق الآن بابك .

ساد صمت . وكان ليتوما يحس بتلمظ الأمواج التي تأتي لتموت على الشـاطئ ، قريباً منه . وبعد لحظة ، سمع دونيا أدريانا تضحك ، ببطء وبسخرية ، كابحة نفسها وكأنها لا تريده أن يسمعها . وعاد هو يضحك كذلك . وبقيا على هذه الحال لبعض الوقت ، يضحكان بالعدوى ، وفي كل مرة بشدة أكبر .

– أي خبث في سخريتنا هكذا من غرام الملازم يا دونيا أدريانا .

فقالت صاحبة المطعم وهي تضحك :

– لا بد أنه مازال يطرق الباب ويحك النافذة ، متوسلاً أن أسمح له بالدخـول . واعـداً إياي بالذهـب والفـضـة لأفـتح له . هاهاها! وكل ذلك للأشباح فقط! هاهاها!

وضحكا بعد ذلك لبعض الوقت . وحين صمتا ، رأى ليتوما أن قدم صاحبة المطعم قد عادت لتكشط الرمل بانتظام وتصميم . وفي البعيد ،

دوّت صفارة مصفاة البترول . إنهم يستبدلون وردية العمال ، فالعمل هناك يتواصل ليلاً ونهاراً . وسُمعت كذلك جلبة شاحنات على الطريق العام .

- الحقيقة أنك تجننين الملازم يا دونيا أدريانا . لو أنك تسمعينه . إنه لا يتكلم عن أي شيء آخر سواك . بل إنه لا ينظر إلى امرأة أخرى . إنك ملكة تالارا في نظره .

سمع دونيا أدريانا تضحك راضية من جديد . وقالت دون أدنى أثر للغضب :

- إنّ يده طويلة ، سأدلق عليه الحساء في يوم من الأيام لجرأته معي . أهو مجنون من أجلي ؟ إنها مجرد نزوة يا ليتوما . لقد أقنع نفسه بغزوي ، وبما أنني لا أوليه اهتماماً ، فإنه يزداد تصميماً . أتظنني حمقاء يا ليتوما . إنها نزوة وحسب . وإذا ما استجبت له مرة واحدة ، فسينتهي كل شيء . . سيفارقه الغرام .

- وهل ستستجيبين له ولو مرة واحدة يا دونيا أدريانا ؟

وردت صاحبة المطعم على الفور ، مصطنعة الانزعاج . لكن ليتوما أدرك أنها تتصنع :

- لن أسمح له طبعاً ولو بعُشر مرة . فلست واحدة من هؤلاء . إنني أم أسرة يا ليتوما . أنا لا أسمح لرجل آخر سوى زوجي بلمسي .

- سيموت الملازم إذن يا دونيا أدريانا . أقسم لك أنني لم أر في حياتي رجلاً يرتعش هكذا من أي شيء كما يرتعش هو منك . إنه يحدثك حتى في أحلامه ، تصوري .

- وما الذي يقوله عندما يحدثني في أحلامه ؟

- لا أستطيع أن أخبرك ، إنها بذاءات فاحشة يا دونيا أدريانا .

أطلقت قهقهة مجلجلة . وحين انتهت من الضحك ، نهضت عن كومة

الرمل ، وانطلقت سائرة . اتخذت الطريق إلى مطعمها ، وليتوما يتبعها .

قالت :

- أنا سعيدة لهذا اللقاء معك . لقد جعلتني أضحك ، وخلصتني من القلق الذي كنت أعانيه .

قال الحارس :

- وأنا سعيد كذلك يا دونيا أدريانا . فبفضل حديثنا نسيت النحيل الذي قتلوه . إنه مستقر في رأسي مذ رأيته في الأرض الصخرية . إنه يسبب لي الكوابيس أحياناً . آمل ألا يفعل ذلك هذه الليلة .

ودّع دونيا أدريانا أمام باب المطعم ومشى باتجاه الموقع . إنه ينام هناك مع الملازم ، حيث ينام الملازم في غرفة واسعة ، مجاورة للمكتب ، وليتوما في نوع من مستودع المؤونة ملاصق لفناء الزنازين . أما بقية الحراس فهم متزوجون ويعيشون في بيوت في القرية . وبينما هو يذرع الشوارع المقفرة ، كان يتخيل الملازم يحك زجاج نافذة بيت المطعم ويهمس بكلمات حب للريح فقط .

في المفوضية ، رأى ورقة مثبتة بقبضة الباب . لقد وُضعت هناك بصورة بارزة ، ليروها عند الدخول . انتزعها بحذر ، وفي الداخل - حجرة من ألواح خشبية ، فيها شعار وراية ، وطاولتا مكتب ، وسلة مهملات - أضاء المصباح . كانت الورقة مكتوبة بحبر أزرق ، بيد شخص له خط منمق وأنيق ، شخص يتقن الكتابة دون أخطاء إملائية .

« مَنْ قتلوا بالومينو موليرو ذهبوا لإخراجه من بيت دونيا لوبي ، في قرية أموتابي . وهي تعرف ما حدث . اسألوها » .

كثيراً ما تتلقى المفوضية خطابات مغفلة التوقيع ، خطابات حول مختلف القضايا وحول مصلحة الجمارك في الميناء . وقد كان هذا هو الخطاب الأول المتعلق بمقتل النحيل .

الفصل الخامس

قال الملازم سيلفا ساخراً :

- أموتابي[1] . يا للاسم! أيكون صحيحاً أنه آت من قصة الخوري وخادمته ؟ ما رأيك يا دونيا لوبي ؟

تقع أموتابي على بعد خمسين كيلومتراً إلى الجنوب من تالارا ، وسط صخور كلسية وكثبان ملتهبة . وتوجد حول القرية أحراش يابسة ، ومجموعات من أشجار الخروب وبعض أشجار الأوكالبتوس المتفرقة ، بقع شاحبة الاخضرار تبعث السعادة في المشهد الرمادي الرتيب . لقد انقبضت الأشجار ، واستطالت ، وتلوت لتمتص الرطوبة الضئيلة المتوفرة في الجو ، فكانت تبدو من بعيد وكأنها ساحرات تومئ . وتحت الفيء المفضال الذي تقدمه جذوعها الملتوية ، توجد دائماً قطعان ماعز ضامرة ، تقضم الأغصان المكسرة المتدلية من الفروع ؛ وتوجد كذلك عصافير ناعسة ، كما يوجد راع ، غالباً ما يكون صبياً صغيراً أو صبية صغيرة السن ، ببشرة ملوحة وعينين حيويتين .

كرر الملازم سيلفا :

---

[1] Amotape: دمج لكلمتي amo وتعني « سيد » و tape وهي صيغة الأمر من الفعل « غطى » . وهكذا يكون معنى الاسم : « غطِّ يا سيدي » .

– أوتظنين أن قصة الخوري وخادمته حول تسمية أموتابي صحيحة يا دونيا لوبي ؟

القرية هي خليط أكواخ من طين وقصب ، وزرائب مبنية من أغصان الأشجار ، إضافة إلى بعض البيوت القليلة المزودة بنوافذ حديدية معتبرة ، متراكمة حول ساحة قديمة تحيط بها ظلة خشبية وأشجار لوز وشجيرات نبات الجهنمية ، وفيها تمثال حجري لسيمون رودريغيث ، معلم بوليفار ، الذي مات في هذا المكان المعزول . ويعيش أهالي أموتابي ، وهم أناس فقراء ومعفرون ، على تربية الماعز وزراعة القطن ، وعلى ما ينفقه سائقو الشاحنات والحافلات الذين ينحرفون عن الطريق العام الواصل ما بين تالارا وسويانا ليتناولوا في القرية إبريقاً من التشيتشة[1] أو ليأكلوا شيئاً من البيكيو . واسم القرية كما تقول أسطورة بيورية يرجع إلى العهد الاستعماري ، حين كانت أموتابي قرية ذات شأن ، وكان لها كاهن بخيل ، يكره دعوة الغرباء إلى الطعام . وكانت خادمته التي تدافع عن بخله ، تحذره حين ترى مسافراً يطل : « سيدي ، غطِّ ، غطَّ القدر ، فهناك شخص قادم » . أيكون ذلك صحيحاً ؟

ودمدمت المرأة أخيراً :

– من يدري . قد يكون صحيحاً وقد لا يكون . الله أعلم .

كانت نحيلة جداً ، ذات بشرة زيتونية جافة تغور ما بين عظامها البارزة في وجنتيها وذراعيها . مذ رأتهما يصلان ، نظرت إليهما بارتياب . « بريبة أكبر من تلك التي ينظر بها إلينا الناس عادة » ، هكذا فكر ليتوما . كانت تتفحصهما بعينين عميقتين ووجلتين ، وبين الحين والحين ، كانت تشد ذراعيها كما لو أن قشعريرة قد فاجأتها . وحين تلتقي نظرتها بنظرة أحدهما ، فإن الابتسامة التي تحاول رسمها تخرج زائفة لدرجة تبدو معها وكأنها مكيدة . وكان ليتوما يفكر :

---

[1] التشيتشة : مشروب كحولي يشبه البيرة ، ويصنع من الذرة المخمرة .

« كم أنت خائفة أيتها الصديقة! إنك تعرفين شيئاً بكل تأكيد » . لقد نظرتْ إليهما هكذا ، بينما هي تقدم لهما الطعام المؤلف من الموز المقلي والمملح وقديد التشابيلو . وهكذا كانت تنظر إليهما كلما طلب منها الملازم استبدال قرعة النبيذ . متى سيبدأ رئيسه بتوجيه الأسئلة إليها ؟ أحس ليتوما بأن التشيتشة بدأت تخدر دماغه . كان الوقت منتصف النهار ، وهناك قيظ ألف شيطان . وكانا ، هو والملازم ، الزبونين الوحيدين . ومن المحل ، كانت تظهر كنيسة سان نيكولاس المائلة ، صامدة ببطولة في مواجهة مرور الزمن ، وفيما وراءها ، عبر الرمال ، تبدو الشاحنات المتوجهة إلى سويانا أو إلى تالارا . لقد أوصلتهما إلى هنا شاحنة محملة بأقفاص الدجاج . وتركتهما على الطريق العام . وأثناء اجتيازهما للقرية ، رأيا وجوهاً فضولية تطل من كل أكواخ أموتابي . كانت ترتفع على عدد من الأكواخ رايات بيضاء ، ترفرف مثبتّة بعصيّ . سأل الملازم أي بيت من هذه البيوت التي تقدم مشروب التشيتشة هو بيت دونيا لوبي . وأشارت جوقة الصبية الذين كانوا يحيطون به في الحال إلى الكوخ الذي هما فيه الآن . تنهد ليتوما مستريحاً ؛ فللمرأة وجود على الأقل ، والرحلة لم تكن عبثاً إذن . لقد جاءا في العراء ، وهما يشمان رائحة ذرق الدجاج ، ويزيحان الريش الذي يدخل في فميهما وآذانهما ، وقد أصابهما الصمم من نقيق رفاقهم في الرحلة . وسببت لهما أشعة الشمس صداعاً . والآن ، عند العودة ، عليهما أن يسيرا ثانية حتى الطريق العام ، والتوقف هنا ، ومدّ ذراعيهما إلى أن يوافق سائق على إعادتهما إلى تالارا .

كان الملازم سيلفا قد قال لدى دخولهما :

– صباح الخير يا دونيا لوبي . لقد أتينا لنرى إذا كانت التشيتشة وقديد التشابيلو والموز المقلي الذي تقدمين لذيذة كما يشاع . لقد حدثونا عنها . وآمل ألا تخيبي ظننا .

وبالنظر إلى الطريقة التي تأملتهما بها ، فإن صاحبة المطعم لم تبتلع

حكاية الملازم . وخصوصاً - فكر ليتوما - إذا أخذنا بالحسبان حموضة التشيتشة وتفاهة طعم فتائل اللحم المقدد . لقد كان صبية أموتابي يحومون حولهما أول الأمر ، لكنهم أخذوا يملون وينصرفون شيئاً فشيئاً . ولم يبق الآن في الكوخ ، حول النار ، وعلى الخوابي الطينية ، وعلى الطراحة ، وعلى الطاولات المائلة الثلاث الموضوعة فوق الأرض الترابية سوى بعض الصغيرات شبه العاريات ، يلعبن بقرعات فارغة . لا بد أنهن بنات دونيا لوبي ، رغم أنه يبدو من الصعب الاعتقاد بأن يكون لامرأة في سنها بنات صغيرات هكذا . أو ربما أنها ليست هرمة إلى هذا الحد ؟ لقد باءت بالفشل جميع المحاولات لفتح حوار معها . حدثاها عن الطقس ، عن الجفاف ، عن موسم القطن هذا العام ، وعن إطلاق تسمية أموتابي على القرية ، وكانت ترد دوماً بالجواب ذاته ، بكلمات مجزوءة أو بالصمت أو التملص .

- سأقول لكَ ما سيفاجئك يا ليتوما . فأنت أيضاً تظن أن دونيا أدريانا بدينة ، أليس كذلك ؟ إنك مخطئ . إنها امرأة حسنة التصريف ، وهذا مختلف جداً .

متى سيبدأ الملازم التحقيق ؟ وكيف سيفعل ذلك ؟ كان ليتوما يشعر وكأنه راقد على جمر ، معلق بين المفاجأة والتقدير اللذين تثيرهما فيه حنكة رئيسه . لقد كان موقناً من أن الملازم سيلفا حريص مثله على كشف النقاب عن سر مقتل بالومينو موليرو . وكان شاهداً على الإثارة التي بعثتها فيه الورقة المُغْفَلَة ليلة أمس . لقد تشمم الورقة كما يتشمم كلب صيد طريدته ، وقال مبدياً رأيه : «ليست مداعبة . إنها تحمل نتانة شيء صحيح . يجب علينا الذهاب إلى أموتابي» .

- أتعرف الفرق بين امرأة بدينة وأخرى حسنة التصريف يا ليتوما ؟ البدينة مترهلة ، تقطر دهناً ، رخوة ، تلمسها فتغوص يدك كما في جبن دهني . تشعر معها بأنك قد خُدعت . أما المرأة حسنة التصريف فهي صلبة ، ممتلئة ، لديها ما يلزم ويزيد . وكل شيء في

مكانه المناسب . فهي موزعة بشكل متقن ومتناسب . تلمسها فتجد مقاومة ، تضغط فترتد يدك . لديها دائماً فائض ، زيادة ، لتشبع منها وتهدي للآخرين .

في الطريق إلى أموتابي ، وبينما شمس الصحراء تثقب قبعتيهما ، كان الملازم يحدث نفسه دون توقف عن الرسالة المغفلة ، مفكراً بالملازم دوفو وبالكولونيل ميندرياو وابنته . ولكن منذ دخولهما كوخ دونيا لوبي ، توارى فضول الملازم سيلفا حول قضية بالومينو موليرو . ولم يفعل شيئاً خلال تناول الطعام سوى الحديث عن اسم اموتابي . أو عن دونيا أدريانا طبعاً ، وكان يفعل ذلك بصوت مسموع ، دون أن يهتم بسماع السيدة لوبي لبذاءاته .

– إنه الفرق بين الشحم والعضل يا ليتوما . البدينة هي شحم . أما المرأة حسنة التصريف ، فهي سلة عضلات . إنَّ ثديين عضليين هما أشهى ما في الدنيا ، بل إنهما أشهى من قديد دونيا لوبي هذا . لا تضحك يا ليتوما ، فالأمر هكذا مثلما أقوله لك . أنت لا تعرف في هذه الأمور . أما أنا فأعرف . فمؤخرة كبيرة وعضلية ، وأفخاذ عضلية ، وظهر وردفا امرأة ذات عضلات ، هي مأكول أمراء وملوك وجنرالات . وي ، رباه! وي . وي . وي! هكذا هي حبي في تالارا يا ليتوما . ليست بدينة وإنما حسنة التصريف . امرأة ذات عضلات ، يا للعنة . هذا هو ما يعجبني .

كان الحارس يضحك بانضباط ، بينما دونيا لوبي تسمع ثرثرة الضابط بجدية وهي تتفحصهما . وكان ليتوما يفكر : «إنها تنتظر» ، بشرود كشروده . متى سيقرر الملازم البدء ؟ يبدو أنه ليس مستعجلاً . فهو يثرثر مسترسلاً في موضوع البدينة .

– ستسأل : كيف يعرف الملازم أن دونيا أدريانا هي امرأة حسنة التصريف وليست بدينة ؟ هل لمسها ؟ صحيح أنني لم أكد ألمسها يا ليتوما . مجرد . مجرد لمسة عابرة هنا ، احتكاك على السريع . مجرد

هراء ، أعلم هذا ، وأنت محق فيما تفكر به . ولكنني رأيتها يا ليتوما . انتهى الأمر ، لقد بحث بسري . رأيتها تستحم بالقميص الداخلي ، هناك على الشاطئ الصغير حيث تذهب عجائز تالارا للاستحمام كي لا يراهنّ الرجال . ذاك الشاطئ الذي وراء الفنار ، شاطئ الأحجار والصخور ، إلى جوار صخرة السرطانات . لماذا تظنني أغيب دوماً في حوالي الساعة الخامسة ، حاملاً منظاري ، وأقول لك بأنني ذاهب لتناول فنجان قهوة في الأوتيل ريال ؟ لماذا تظنني أتسلق الصخرة القائمة عند ذلك الشاطئ ؟ لماذا كل هذا يا ليتوما ؟ لكي أنظر إلى حبي وهي تستحم بالقميص الداخلي الوردي . فما إن يبتل القميص حتى تبدو وكأنها عارية يا ليتوما . رباه ، اسكبي عليّ ماء يا دونيا لوبي ، فإنني أحترق! أطفئي حريقي هذا! هناك يمكن رؤية ما هو الجسد حسن التصريف يا ليتوما . الإليتان صلبتان ، النهدان صلبان ، عضلات صافية من الرأس حتى القدمين.. سآخذك معي يوماً وأريك إياها . سأعيرك منظاري . ستصاب بالحول يا ليتوما . سترى أنني على حق . سترى أشهى جسد في تالارا . أجل يا ليتوما ، أنا لستُ غيوراً ، على الأقل مع مرؤوسي . إذا ما كنت عاقلاً ، فسأجعلك تتسلق صخرة السرطانات يوماً . ستصاب بإغماءة سعادة لدى رؤيتك تلك الأنثى .

يبدو وكأنه نسي ما الذي جاء يفعله في اموتابي ، اللعنة . ولكن حين بدأ فقدان الصبر يبعث اليأس في نفس ليتوما ، صمت الملازم سيلفا فجأة ، ونزع نظارته السوداء – رأى الحارس أن عيني رئيسه براقتان وحادتان – ومسحها بمنديله ثم أعاد وضعها من جديد . أشعل سيجارة بهدوء شديد ، وتكلم بصوت مفرط في العذوبة :

– ثمة أمر يا دونيا لوبي ، تعالي ، تعالي ، اجلسي معنا هنيهة . علينا أن نتحدث ، أليس كذلك ؟

– وبماذا سنتحدث ؟ – دمدمت المرأة وأسنانها تصطك . لقد بدأت ترتجف وكأنها مصابة بالحمى . وانتبه ليتوما إلى أنه يرتجف أيضاً .

فابتسم لها الملازم سيلفا :

- عن بالومينو موليرو يا دونيا لوبي ، ومن سيكون سواه ؟ فلن أتحدث معك عن حبي في تالارا ، عن بدينتي اللذيذة ، ألا ترين ذلك ؟ تعالي ، تعالي . اجلسي هنا .

- لا أعرف من هو هذا الشخص - تلعثمت المرأة وقد تغيرت ملامحها . وجلست مثل دمية متحركة على المقعد الصغير الذي أشار إليه الملازم . لقد هزلت فجأة وبدت أشد نحولاً مما كانت عليه من قبل . كانت تحرك وجهها بإيماءات غريبة ، وتلوي فمها ، وكررت :- أقسم أنني لا أعرف من يكون .

- طبعاً أنت تعرفين من هو بالومينو موليرو يا دونيا لوبي - أنبّها الملازم سيلفا . وكان قد توقف عن الابتسام وبدأ يتكلم بلهجة باردة وقاسية فاجأت ليتوما ، الذي فكر : «أجل ، أجل ، ها نحن سنعرف أخيراً ما الذي حدث» . وتابع الملازم :- الطيار الذي قتلوه في تالارا . الذي أحرقوه بالسجائر وشنقوه . الذي دسوا عصا في مؤخرته . بالومينو موليرو ، النحيل الذي كان يغني ألحان البوليرو . لقد كان هنا ، في هذا البيت ، حيث نحن الآن ، أنا وأنت . ألا تذكرينه الآن ؟

لاحظ ليتوما أن المرأة قد فتحت عينيها كثيراً ، وكذلك فمها . ولكنها لم تقل شيئاً . بقيت هكذا ، مفككة ، مرتعشة ، كطفلة تريد البدء بالبكاء .

أطلق الملازم نفثة دخان ، وبدا كأنه يتسلى بمراقبة تعرجات الدخان الدائرية :

- سأكلمك بصراحة يا سيدتي . إذا أنت لم تتعاوني ، وإذا أنت لم تجيبي على أسئلتي ، فإنك ستقعين في ورطةٍ ابنة عاهرة . إنني أقول لك هذا ، بكلمات بذيئة ، لتدركي خطورة الوضع الذي أنت فيه . لا أريد اعتقالك ، ولا أريد حملك إلى تالارا ، ولا أريد إدخالك السجن . أنا لا

أريدك أن تقضي بقية حياتك في السجن ، كمتسترة ومشاركة في جريمة قتل . أؤكد لك أنني لا أريد شيئاً من ذلك يا دونيا لوبي .

كانت الصغيرة تواصل إظهار تقطيبة البكاء ، فرفع ليتوما إصبعه إلى شفتيه ، مشيراً إليها أن تصمت . فأخرجت له لسانها وابتسمت .

– سيقتلونني – نشجت المرأة ببطء . لكنها لم تكن تبكي ، كان في عينيها الجافتين حقد ورعب بهيمي . ولم يكن ليتوما ليتجرأ على التنفس ، فقد خيل إليه بأن أمراً شديد الخطورة سيحدث إن هو تحرك أو أثار ضجة . رأى الملازم سيلفا يفتح قراب مسدسه برصانة بالغة ، ويخرج المسدس ويضعه على الطاولة ، مزيحاً بقايا اللحم المقدد . وداعب ظهرها بينما هو يتكلم :

– لن يمس أحد شعرة منك يا دونيا لوبي إذا أنتِ أخبرتنا بالحقيقة . فهذا موجود للدفاع عنك إذا اقتضى الأمر .

ومن بعيد ، حطم نهيق أتان ممسوسة السكون المخيم في الخارج . وفكر ليتوما : « إنهم يعشرونها » .

– لقد هددوني . قالوا لي إذا ما فتحت فمك ستموتين – عوت المرأة ، رافعة ذراعيها . كانت تضغط وجهها بكلتا يديها وتتلوى من قدميها إلى رأسها . وكان اصطكاك أسنانها مسموعاً : – أي ذنب اقترفت ، ما الذي فعلته أنا يا سيدي . لا يمكنني أن أموت ، لا يمكنني أن أترك هؤلاء الصغار وحدهم . لقد قتل جرَّار زوجي يا سيدي .

وعاد الأطفال الذين كانوا يلعبون على الأرض لسماعها تصرخ ، ولكنهم ما لبثوا بعد لحظة أن تخلوا عن اهتمامهم بها وعادوا إلى لعبهم ، والطفلة التي كانت تبكي ، حبت حتى عتبة الكوخ ، فصبغت الشمس شعرها وجلدها باللون الأحمر . كانت تمص يدها .

عوت المرأة :

- وهم أروني مسدساتهم أيضاً ، فلمن أنصاع ، لكم أم لهم ؟

كانت تحاول البكاء ، تلوي فمها ، تعصر ذراعيها ، لكن عينيها بقيتا جافتين . فضربت صدرها ورسمت إشارة الصليب .

ألقى ليتوما نظرة إلى الخارج ، لا ، صرخات المرأة لم تجتذب الجيران . كانت تظهر من خلال فتحة الباب والفجوات التي بين القضبان بوابة كنيسة سان نيكولاس المغلقة والساحة المقفرة . والأطفال الذين كانوا يطوفون قبل لحظات ويضربون بأقدامهم كرة مصنوعة من خرق حول الميدان ، لم يعد لهم وجود هناك . وفكر : «لقد أخذوهم ، خبؤوهم . لقد سحبهم آباؤهم من أعناقهم وأدخلوهم إلى الأكواخ ، كيلا يسمعوا ولا يروا ما سيحدث هنا» . جميعهم يعرفون إذاً قضية بالومينو موليرو ؛ جميعهم كانوا شهوداً . الآن سينكشف السر إذاً .

- اهدئي ، ولنمضِ خطوةً خطوةً ، دون تسرّع - قال الملازم . لكن نبرة صوته ، على خلافَ كلماته ، لم تكن تريد طمأنتها وإنما مضاعفة خوفها . لقد كان صوته بارداً ومتوعداً :- لن يقتلك أو يقربك أحد ، كلمة رجل ، شريطة أن تحدثيني بصراحة ، وأن تخبريني بالحقيقة كلها .

تلعثمت المرأة :

- لا أعرف شيئاً ، لا أعرف شيئاً ، إنني خائفة ، رباه - ولكن في ملامحها وخذلانها كان واضحاً أنها تعرف كل شيء ، وأنها لا تملك القدرة على رفض الإدلاء به :- ساعدني أيها القديس نيكولاس .

رسمت إشارة الصليب مرتين وقبلت أصابعها المتصالبة .

أمرها الملازم :

- فلنبدأ من البداية . متى ولماذا جاء بالومينو موليرو إلى هنا . منذ متى كنتِ تعرفينه ؟

فاعترضت المرأة - وكانت ترفع صوتها وتخفضه وكأنها فقدت

السيطرة على حنجرتها ، وهي تقلب عينيها :

- لم أكن أعرفه ، لم أكن قد رأيته في حياتي . ما كنت لأعطيه سريراً هنا لولا الفتاة . كانا يبحثان عن الكاهن ، عن الأب ازيكيل . ولكنه لم يكن موجوداً . إنه لا يتواجد هنا تقريباً ، فهو مسافر دوماً .

وأفلت لسان ليتوما :

- والفتاة ؟

وجعلته نظرة الملازم يعضّ على لسانه .

ارتجفت دونيا لوبي :

- الفتاة . أجل ، هي كنت أعرفها . لقد توسلا إلي كثيراً حتى لنت لهما . لم أفعل ذلك من أجل النقود يا سيدي ، والله أعلم كم أنا بحاجة إليها ، فقد دهس الجرار زوجي . ألم أقل لك هذا ؟ أقسم بربنا الذي يرانا ويسمعنا هناك في الأعلى ، وبالقديس نيكولاس الذي يحمينا . ثم إنه لم يكن لديهما نقود . كانا يملكان ما يكاد يكفي ثمناً للطعام فقط . قدمت لهما السرير مجاناً ؛ فعلت ذلك بدافع الشفقة ، لأنهما كانا سيتزوجان ، لقد كانا غضيّن جداً ، كانا أشبه بالأطفال ؛ ولأجل الحب الذي كان يبدو أن كلاً منهما يكنه للآخر يا سيدي . وكيف كنت سأعرف ما الذي سيحدث . ما الذي فعلته لك يا ربي لتُدخلني في نكبة كهذه .

انتظر الملازم وهو ينفث الدخان في حلقات ويرمي المرأة بنظره من خلال نظارته ، بينما دونيا لوبي ترسم إشارة الصليب ، وتعصر ذراعيها وتشد وجهها وكأنها تريد تهشيمه .

قال دون أن يبدل من نبرة صوته :

- أعرف أنك امرأة طيبة . لا تقلقي ، وتابعي . كم يوماً بقي العاشقان هنا ؟

وجرح النهيق الفاحش الصباح ثانية ، وكان أقرب هذه المرة . سمع ليتوما وقع حوافر ، فاستنتج : «لقد عشَّرها» .

ردت دونيا لوبي :

- يومان فقط . بقيا بانتظار الكاهن . لكن الأب أزيكيل كان مسافراً . إنه يسافر دوماً . يقول إنه يذهب لتعميد وتزويج أناس في مزارع الجبال ، وإنه يذهب إلى أياباكا ، لأن السيد كوتيفو شديد الروع ، ولكن من يدري . إنه يقول ألف شيء عن رحلاته الكثيرة . وقد قلت لهما ألا ينتظرا كثيراً ، لأنه قد يتأخر أسبوعاً ، أو عشرة أيام . . من يدري كم من الوقت سيتأخر . وكانا سيذهبان في صباح اليوم التالي إلى سان خاثينتو . كان يوم أحد وقد نصحتهما أنا نفسي بالذهاب إلى هناك . ففي أيام الآحاد يذهب كاهن من سويانا إلى سان خاثينتو لأداء القداس . وبإمكانه هو أن يزوجهما إذاً ، هناك في كنيسة المزرعة . كان كل ما يرغبان فيه من الدنيا هو كاهن ليزوجهما . إن بقاءكما هنا سيكون بلا فائدة ، اذهبا ، اذهبا إلى سان خاثينتو .

قاطعها الملازم :

- لكن العاشقين لم يتمكنا من الذهاب في يوم الأحد ذاك .

فارتعدت دونيا لوبي :

- لا . وبقيت صامتة تنظر إلى عيني الضابط ، ثم إلى ليتوما ، ومرة أخرى إلى الضابط . كانت ترتعش وأسنانها تصطك .

وساعدها الضابط متهجياً :

- لأن . . .

فأسرّت وهي تخرج عن طورها :

- لأنهم جاؤوا في أثرهما مساء السبت .

لم يكن الظلام قد خيم بعد . وكانت الشمس لاتزال كرة من نار ما بين أشجار الأوكالبتوس وأشجار الخروب ، وكان توتياء بعض السقوف يتلألأ ببريق الغسق ، وكانت هي تطبخ أثناء ذلك ، منحنية على الموقد ، فرأت السيارة التي خرجت عن الطريق العام متجهة نحو أموتابي ، وجاءت إلى الساحة مباشرة وهي تتقافز ، وتشخر ، وتثير عاصفة من الغبار . لم ترفع دونيا لوبي عينيها عنها وهي تراها تقترب . وسمعا هما كذلك صوت السيارة ورأياها . لكنهما لم يهتما بها إلى أن توقفت بجوار الكنيسة . كانا يجلسان هناك ، ويتبادلان القبلات . طوال النهار كانا يتبادلان القبلات . يكفي ، يكفي ، إنكما تقدمان مثلاً سيئاً للأطفال . من الأفضل أن تتحدثا أو تغنيا .

فهمس الملازم مشجعاً إياها على مواصلة الكلام :

– لأنه كان يغني جهداً ، أليس كذلك ؟ ولاسيما ألحان البوليرو ؟

فوافقت المرأة :

– وكذلك الفالسات والتونديرات .

وتنهدت بعمق مما جعل ليتوما يرتعش ، ثم تابعتْ :

– وحتى الكومانانا ، هذا الغناء الذي يتنافس فيه اثنان . كان يغنيه بصورة رائعة ، يا لظرافته .

فذكّرها الملازم :

– وصلت السيارة إلى أموتابي وأنتِ رأيتها . هل ركضا هاربين ؟ هل اختبأا ؟

– هي أرادته أن يهرب ، أن يختبئ . كانت تخيفه قائلة له : اركض يا حبي ، اختبئ يا حبي ، اركض ، اركض ، لا تبق هنا ، لا أريدك أن . . .

– لا يا حبيبتي ، تذكري أنك قد صرتِ لي ، لقد أمضينا ليلتين

معاً ، إنك امرأتي . لا أحد يستطيع المعارضة الآن . عليهم أن يقبلوا بحبنا . لن أذهب . سأنتظره ، وسأتحدث إليه .

وكانت مذعورة جداً . اركض ، اركض ، سيـ . . . ، قد يفعلون بك لست أدري أي شيء ، اهرب ، أنا سأتولى مشاغلتهم ، لا أريدهم أن يقتلوك يا حبيبي . لقد كانت خائفة جداً مما جعل دونيا لوبي تخاف أيضاً :

– من هم ؟ – سألتهما مشيرة إلى السيارة المعفرة بالتراب ، وإلى الأشباح التي نزلت منها ، قاتمة ، بلا وجوه ، في مواجهة الأفق الملتهب : – من القادم هناك ؟ رباه ، رباه ، ماذا سيحدث .

نفث الملازم سيلفا سلسلة من دوائر الدخان :

– ومن هم الذين جاؤوا يا دونيا لوبي ؟

فدمدمت المرأة وهي لا تكاد تفصل ما بين أسنانها ، بغضب محاه خوفها :

– ومن سيكونون ؟ من سواكم أنتم .

لم يضطرب الملازم سيلفا :

– نحن ؟ الحرس الأهلي ؟ إنك تعنين الشرطةَ الجوية . . أشخاصاً من قاعدة تالارا الجوية . أليس كذلك ؟

دمدمت المرأة وهي ساهمة :

– أنتم ، ذوو الزي العسكري . ألستم الشيء نفسه ؟

ابتسم الملازم سيلفا :

– في الحقيقة لا . ولكن ، لا يهم .

وفي هذه اللحظة ، ودون أن ينصرف عن كشوفات دونيا لوبي ، رآهما ليتوما . كانا هناك ، يحتميان من الشمس تحت سقف الحصير ،

يجلسان متلاصقين وأصابعهما متشابكة ، قبل لحظة من حلول الكارثة . كان هو يميل برأسه ذي التجاعيد السوداء القصيرة على كتف الفتاة ويداعب أذنها بشفتيه ، يغني لها : روحان وحدّهما الله في الدنيا ، روحان متحابتان ، أنا وأنت . وكانت عيناها تترقرقان تأثراً بحنان الأغنية ورقتها ، وهزت كتفيها قليلاً ، إما لأنها تريد سماع الغناء بصورة أفضل وإما للتغنج ، وقطبت وجهها ، وجه الصبية العاشقة . لم يكن هناك من أثر للجفاء ولا للعجرفة في هذه الملامح المراهقة التي جعلها الحب أكثر عذوبة . أحس ليتوما بأن حزناً كئيباً يطغى عليه عند التفاته إلى حيث بدت وتقدمت دون شك سيارة العسكريين ، يسبقها صخب محركها ، وسط غمامة من الغبار الأصفر ، وتجولها في بلدة أموتابي مع انتصاف النهار ، ثم مجيئها بعد دقائق مشؤومة لتتوقف على بعد عدة أمتار من الكوخ نفسه الذي لا باب له ، حيث هما موجودان الآن . وفكر : «لا بد أنه كان سعيداً على الأقل خلال اليومين اللذين أمضاهما هنا » .

سأل الملازم :

- كانا اثنين فقط ؟

وفوجئ ليتوما حين انتبه للمفاجأة التي أصابت رئيسه . وكان يتفادى النظر في عينيه ، لإيمانه بخرافة سوداء .

كررت المرأة مرتعدة ومرتابة :

- اثنان فقط .

وأغمضت عينيها ، وكأنها تراجع ذاكرتها لتتأكد من أنها لم تخطئ :

- لا أحد سواهما . نزلا كلاهما وبقيت سيارة الجيب فارغة . لأن السيارة كانت سيارة جيب ، إنني أراها الآن ، لم يكن فيها سوى رجلين ، وأنا متأكدة ، لماذا يا سيدي ؟

فقال الملازم وهو يدوس عقب السيجارة :

- لا شيء . لقد تصورت أن دورية كاملة على الأقل قد خرجت للبحث عنه . ولكن ، إذا كنتِ قد رأيت اثنين . فإنهما اثنان . لا مشكلة في هذا . تابعي يا سيدتي .

وقاطع دونيا لوبي نهيق آخر . ارتفع في جو ظهيرة أموتابي الحار ، طويلاً ، مفعماً بتدرج الارتفاع والانخفاض ، عميقاً ، مرحاً ، عفوياً . وفي الحال ، نهض الأطفال الذين كانوا يلعبون وخرجوا ، راكضين أو زاحفين ، وهم منفجرون بالضحك الخبيث . وفكر ليتوما بأنهم ذاهبون لرؤية الأتان ، ليروا كيف يمتطيها الذكر الذي يجعلها تنهق هكذا .

- هل أنتِ بخير- قال لها شبح أكبرهما سناً ، شبح من لم يكن يحمل مسدساً في يده : - هل ألحق بك مكروهاً ؟ أأنت بخير ؟

كانت الدنيا قد أظلمت خلال ثوان قصيرة . ففي الوقت القصير الذي استغرقه الرجلان في اجتياز المسافة بين سيارة الجيب والكوخ ، كان المساء قد تحول إلى ليل .

وقالت الفتاة دون أن تصرخ ، متحدية ، وكعباها راسخان على الأرض ، وقبضتاها مطبقتان ، وذقنها ترتعش :

- إذا ما آذيته في شيء ، فسوف أقتل نفسي . إذا فعلتَ له شيئاً سأقتل نفسي . ولكنني سأروي كل شيء للجميع قبل ذلك . وسيموت الجميع قرفاً وخجلاً منك .

كانت دونيا لوبي ترتجف أكثر من ورقة :

- ماذا جرى يا سيدي ، من أنتما ، وماذا أستطيع أن أقدم لكما ، هذا هو بيتي المتواضع . أنا لا أوذي أحداً ، إنني امرأة بائسة .

واقترب الذي كان يحمل السلاح . الشبح الذي كان يقذف لهباً كلما نظر إلى الشاب - لأن الأكبر سناً لم يكن ينظر إلا إلى الفتاة - ،

اقترب من دونيا لوبي ووضع المسدس ما بين ثدييها الجافين ، وأمرها ، ثملاً بالحقد والغضب :

- نحن لسنا هنا ، نحن غير موجودين ، وإذا فتحت فمك ، فستموتين ككلبة مصابة بالسعار . سأقتلك أنا نفسي ، مفهوم ؟

انهارت هي على ركبتيها . ما الذي فعلته يا سيدي ؟ لا شيء ، لا شيء ، استقبلت شابين طلبا مأوى . بحق الرب وبحق أمه المقدسة يا سيدي ، لا تطلق النار ، كيلا تقع أية محنة في أموتابي .

قاطعها الملازم سيلفا :

- أكان الأصغر يدعو الأكبر « سيدي الكولونيل » ؟

قالت باستكانة وهي تفكر :

- أنا لا أعرف يا سيدي - وكانت تحاول أن تخمن ما الذي يناسبها أن تعرفه : - سيدي الكولونيل ؟ الأصغر للأكبر سناً ؟ ربما نعم وربما لا ، أنا لا أذكر ذلك . أنا بائسة وجاهلة يا سيدي ، أنا لم أسع إلى شيء من ذلك ، إنها المصادفة فقط . قال لي حامل المسدس إن أنا فتحت فمي ورويت ما أرويه الآن ، فإنه سيرجع ليطلق رصاصة على رأسي ، وأخرى في بطني وأخرى في الأعضاء . ماذا سأفعل ، ماذا سأفعل . لقد فقدت زوجي ، مزقه جرار . ولديّ ستة أبناء لا أكاد أؤمن الطعام لهم . كانوا ثلاثة عشر وقد مات منهم سبعة . فإذا قتلوني ، سيموت الستة الآخرون . هل هذا عدل ؟

فألح الملازم :

- هل كان حامل المسدس ضابطاً ؟ أكانت توجد على كتفه شريطة حريرية ؟ وشعار واحد على قبعته ؟

وفكر ليتوما بأن هناك توارداً للخواطر . فرئيسه يوجه الأسئلة التي تدور بخلده هو ، كان يترنح ويحس بشيء من الدوار .

عوت المرأة :

- أنا لا أعرف هذه الأمور . لا تشوشني إذاً ، لا توجه إليّ أسئلة لا أفهمها . ما هو الضابط ، ما معنى هذا ؟

كان ليتوما يسمعها ، لكنه كان يراهم ثانية ، بوضوح ،رغم الظلال الزرقاء التي تلف أموتابي . السيدة لوبي جاثية تتباكى أمام الأصغر سناً المحتدم وكثير الإيماءات ، هناك عند الحد الفاصل ما بين الكوخ والشارع ؛ بينما الأكبر سناً ينظر بمرارة ، بألم ، بغيظ إلى الفتاة المتحدية التي تحمي النحيل بجسدها ولا تسمح له بالتقدم ولا بالتحدث إلى القادمين الجديدين . كان يرى كيف أن وصول الغريبين قد محا من الشوارع ، كما هو حاصل الآن ، كل أثر لأطفال وشيوخ ، وحتى لكلاب ونعاج أموتابي ، ودفنهم في بيوتهم ، خشية أن يجدوا أنفسهم متورطين في مشكلة .

- اصمت أنت ، لا تتكلم ، من تكون أنت ، بأي حق ، ما الذي تفعله أنت هنا - كانت الفتاة تقول لأصغرهما سناً وهي تقف أمامه ، تدفعه بقوة وتوقفه ، وتمنعه من التقدم والتكلم . وتتابع في الوقت نفسه تهديد شبح الأكبر سناً : - سأقتل نفسي وأخبر الجميع بكل شيء .

وكان النحيل يتلعثم :

- إنني أحبها بكل جوارحي ، وأنا رجل شريف ، سأكرس حياتي لعبادتها وجعلها سعيدة .

ولم يكن قادراً ، بالرغم من جهوده ، على التخلص من الدرع الذي يشكله جسد الفتاة ، والتقدم . ولم يلتفت شبح الأكبر سناً إليه الآن أيضاً ؛ بل واصل تركيزه على الفتاة وكأنه لا وجود في أموتابي ، ولا في العالم بأسره ، لأحد سواها . ولكن ما إن سمعه الأصغر سناً ، حتى قام بالالتفات ، واندفع نحوه ، لاعناً من بين أسنانه ، ورافعاً مسدسه كما لو كان سيفرغه في رأسه ، فاعترضته الفتاة مقاومة إياه . وحينئذ أمره

شبح الأكبر سناً بجفاء وحزم : «اهدأ» . فانصاع الآخر في الحال .

سألها الملازم سيلفا :

– قال له «اهدأ» فقط ؟ أم قال له «اهدأ يا دوفو» ؟ أو «اهدأ يا ضابط دوفو» ؟

إن هذا أقرب إلى المعجزة منه إلى توارد الخواطر . فرئيسه يوجه الأسئلة مستخدماً الكلمات نفسها التي كانت تجول في ذهنه .

أقسمت دونيا لوبي :

– أنا لا أعرف . لم أسمع أي اسم . لقد عرفت فقط أن اسمه هو بالومينو موليرو حين رأيت الصور في جريدة «تيمبو دي بيورا» . لقد تعرفت على صورته هناك بالذات . حطم قلبي يا سيدي . إنه هو ، الفتى الذي خطف الفتاة وجاء بها إلى أموتابي . ولم أعرف حينئذ ولست أعرف حتى الآن ما اسمها هي أو ما اسم السيدين اللذين جاءا بحثاً عنهما . ولست أريد معرفة ذلك أيضاً . لا تخبرني به إذا كنت تعرفه ، أرجوك . ألست متعاونة معك ؟ لا تخبرني إذاً بهذه الأسماء!

قال شبح الأكبر سناً :

– لا تخافي ، ولا تصرخي ، ولا تتحدثي عن هذه الأمور يا بنيتي ، يا بنيتي الحبيبة . كيف يمكنك تهديدي ؟ أتقتلين نفسك ، أنتِ ؟

وتحدته الفتاة :

– إذا آذيته بشيء ، أو لمست منه إصبعاً .

وفي المساء ، وراء حجاب مائل إلى الزرقة ، كانت الظلال تصبح أكثر كثافة ، وكانت النجوم قد ظهرت . وبدأت بعض القناديل ترتعش ما بين قصب وطين ونوافذ أموتابي .

دمدم شبح الأكبر سناً :

- من الأفضل أن أمد له يدي وأن أقول له من أعماق قلبي : « إني أسامحك » .

مدّ يده فعلاً ، رغم أنه فعل ذلك دون أن ينظر إليه حتى الآن . وأحست دونيا لوبي بأنها تبعث من جديد . رأتهما يتصافحان . وكان الفتى لا يكاد يقدر على الكلام ، كان يختنق بالانفعال :

- أقسم لك ، سأفعل كل شيء . . إنها نور حياتي ، إنها قدس الأقداس ، إنها . . .

وأمر شبح الأكبر سناً :

- وأنتما أيضاً تصافحا ، دون أحقاد . لا رؤساء ولا مرؤوسين . لا شيء من هذا . رجلان فقط ، ثلاثة رجال ، يسوون أمورهم كأنداد ، كما يجب على الرجال أن يفعلوا . هل أنتِ سعيدة الآن ؟ هل اطمأننت أخيراً ؟ انتهى كل شيء ، لقد انقضت لحظة النحس بالنسبة للجميع . والآن ، هلمّوا بنا .

أسرع بإخراج محفظته من جيبه الخلفي . وأحست دونيا لوبي بأنه وضع في يدها بضع أوراق نقدية ملوثة بالعرق ، وسمعت صوتاً شهماً يشكرها لتحملها الإزعاج وينصحها بنسيان كل شيء . ثم رأت شبح الأكبر سناً يخرج ويتقدم نحو سيارة الجيب التي ما زالت مفتوحة الأبواب ، لكن حامل المسدس رفع سلاحه ثانية إلى صدرها :

- إذا فتحت فمك بكلمة ، فأنت تعلمين . تذكري .

- وهل صعد النحيل والفتاة إلى سيارة الجيب هكذا ، بانقياد ؟ ومضيا معهما ؟ - لم يكن الملازم ليصدق هذا ، بالنظر إلى الملامح التي كانت تبدو على وجهها ، كما أن ليتوما لم يصدق أيضاً .

قالت دونيا لوبي :

- لم تكن هي تريد الذهاب . كانت مرتابة وحاولت منعه من

الذهاب معهما : فلنبق هنا ، لا تصدقه ، لا تصدقه .

وكان صوت الأكبر سناً يشجعها من داخل سيارة الجيب :

– هيا ، هلموا بسرعة يا بنيتي . ولا تنسي أنه فارٌ من الخدمة . عليه أن يعود . يجب ترتيب هذا الأمر بأسرع ما يمكن ، لا بد من تنظيف هذه اللطخة من سجل خدمته . فكري بمستقبله يا بنيتي . هيا ، هيا .

وكان الفتى يلح :

– أجل يا حبيبتي ، إنه على حق . لقد صفح عنا ، هيا بنا ، ولنعمل برأيه . فلنصعد ، إنني واثق منه . وكيف لا أثق به وأنا أعرف من يكون .

« أعرف من يكون » . وأحس ليتوما بدمعة تتدحرج على وجنته حتى طرف شفتيه . كانت مالحة ، كقطرة من ماء البحر . وتابع الاستماع ، وكأنه يستمع إلى دمدمة بحرية ، لصوت دونيا لوبي التي يقاطعها الملازم بين الفينة والفينة . كان قد أدرك بغموض أن السيدة لن تقول شيئاً لم تقله من قبل حول ما جاءا للتقصي عنه . كانت تتحسر لسوء طالعها ، ولما سيحدث لها ، وتسأل السماء أي ذنب اقترفت لتجد نفسها متورطة في قصة رهيبة كهذه . وكانت تفلت منها إجهاشة أحياناً . ولكن لا شيء مما قالته كان يهم ليتوما . كان يرى بين الحين والآخر ، كما في حلم ، الشابين السعيدين ، يستمتعان بشهر عسلهما السابق لزفافهما في أزقة أموتابي . هو : تشولو[1] من حي كاستييا ، وهي : بيضاء من أسرة راقية . لا حواجز أمام الحب ، هذا ما تقوله كلمات أغنية الفالس . وقد كان الأمر حقيقة في هذه الحالة ، إذ حطم الحب الأوهام الاجتماعية والعرفية والهوة الاقتصادية . لا بد أن الحب الذي أحس به كل منهما نحو الآخر كان عنيفاً لا كابح له كي

---

١ ـ تشولو : مولد من أب أبيض وأم هندية .

يقدما على ما فعلاه . وفكر : «لم أشعر أبداً بحب كهذا . ولا حتى عندما أحببت ميتشيه ، حبيبة خوسيفينو » . لا ، فقد أحب هو في بعض الأحيان ، ولكنها كانت نزوات لاتلبث أن تزول بمجرد استسلام المرأة له أو بعد مقاومتها إلى الحد الذي يجعله يعافها . لكنه لم يتصور قط حباً متسلطاً يمكن المجازفة بالحياة في سبيله ، مثلما فعل النحيل ، أو جديراً بأن يتحدى العالم بأسره من أجله ، كما فعلت الفتاة . وفكر : « ربما أنني لم أُخلق لأعرف ما هو الحب الحقيقي . وربما لأني أمضيت حياتي في الذهاب إلى حيث المومسات ، فقد أُشبع قلبي وأصبح عاجزاً عن حب امرأة مثل النحيل » .

وسمع دونيا لوبي تتوسل :

– ماذا سأفعل الآن يا سيدي ؟ انصحني .

كان الملازم واقفاً ويسأل عن ثمن التشيتشية واللحم المقدد ، حين قالت المرأة لا شيء ، لا شيء . فألح عليها . لا يمكن يا سيدتي ، فهو ليس واحداً من رجال الشرطة المحتالين الذين يأكلون على نفقة الآخرين ، إنه يدفع ثمن كل ما يستهلكه ، سواء أكان في الخدمة أم لا .

رجته دونيا لوبي بكآبة ، وقد ضمت يديها وكأنها تصلي :

– ولكن ، قل لي على الأقل ماذا عليّ أن أفعل الآن . سيقتلونني مثلما قتلوا الشاب المسكين . ألا تدرك هذا ؟ لا أعرف إلى أين أذهب ، لا مكان لي الجأ إليه . ألم أتعاون معكم مثلما طلبت مني ؟ قل لي ماذا أفعل الآن .

فقال الملازم ببشاشة وهو يضع نقود الحساب إلى جانب إبريق التشيتشة الذي شرب منه :

– ابقي هادئة يا دونيا لوبي . لن يقتلك أحد . لن يجيء أحد لإزعاجك . واصلي حياتك المعتادة وانسي ما رأيت وما سمعتِ ، وما

رويتِه لنا كذلك . إلى اللقاء .

رفع طرف إصبعين من أصابعه إلى واقية قبعته ، بحركة وداع من حركاته المعتادة . نهض ليتوما واقفاً على عجل ، ولحق به ناسياً أن يودع صاحبة المحل . لقد كان الخروج إلى العراء ، وتلقي الشمس العمودية مباشرة ، دون غربال الحُصُر والقصب ، هو كالدخول في الجحيم . فبعد ثوان قصيرة ، أحس بقميصه الخاكي مبللاً وبرأسه يطن . كان الملازم سيلفا يمشي بخفة ظاهرة ؛ أما هو فكان حذاؤه ينغرس في الرمل ، وكان يمشي بمشقة . سارا في شارع متعرج ، الشارع الرئيسي في أموتابي ، باتجاه الخلاء والطريق العام . ولدى مرورهما لاحظ ليتوما ، عرضاً ، العناقيد البشرية وراء نوافذ الأكواخ ، وعيون الجيران الفضولية والقلقة . كانوا قد اختفوا جميعهم حين رأوهما يصلان ، لخوفهم من الشرطة . وهو متأكد من أنه ما إن يغادر أموتابي مع الملازم ، حتى يهرعوا بصخب إلى كوخ دونيا لوبي ليسألوها عما حدث ، وعما قالاه وفعلاه . لقد مشيا كثيراً ، وكل منهما غارق في أفكاره . كان الملازم يتقدمه بخطوتين أو ثلاث خطوات . وعند اجتيازهما آخر بيوت الضيعة ، خرج كلب أجرب ليكشف لهما عن أسنانه . وعلى الأرض الرملية ، كانت تظهر سحالي سريعة وتختفي بين الأحجار . وفكر ليتوما بأن هناك ثعالب أيضاً في هذه البراري . ولا بد أن النحيل والفتاة سمعاها تعوي في الليل خلال اليومين اللذين أمضياهما في أموتابي ، حين كانت تقترب جائعة ، لتطوف حول حظائر الماعز والدجاج . أكانت الفتاة تشعر بالخوف عند سماعها عواء الثعالب ؟ أكانت تحتضنه ، مرتعشة ، بحثاً عن حماية فيضمها هامساً في أذنها بكلمات عذبة ؟ أم أنهما كانا ، في حبهما العظيم ، يقضيان الليل ذاهلين ومستغرقين ، دون أن يسمعا أي صوت من أصوات الدنيا ؟ أتراهما مارسا الحب لأول مرة هنا في أموتابي ؟ أم أنهما مارساه قبل ذلك ، على الرمال التي تحيط بقاعدة بيورا الجوية ؟

حين وصلا إلى حافة الطريق العام ، كان ليتوما مبللاً من رأسه إلى

أخمص قدميه ، وكأنه نزل بملابسه إلى ساقية . ورأى بنطال الملازم سيلفا الأخضر وقميصه الكريم مبللين كذلك ببقع كبيرة من العرق ، وأن جبهته مرصعة بقطرات العرق أيضاً . لم يريا أية سيارة ؛ فهز رئيسه كتفيه علامة الخضوع للقدر ، وهمس : « الصبر » . أخرج علبة سجائر إنكا ، فقدم سيجارة إلى ليتوما وأشعل لنفسه أخرى . دخنا بصمت لهنيهة ، بينما الحر يشويهما ، وهما ساهمان يراقبان سراب بحيرات وجداول وبحار أمامهما ، على الرمل اللامتناهي . ولم تتوقف الشاحنة الأولى التي مرت متوجهة إلى تالارا ، رغم الإشارات الهستيرية التي قاما بها كلاهما ملوحين بقبعتيهما .

نظر الملازم بمرارة إلى الشاحنة المبتعدة :

– في مركز خدمتي الأول في أبانكاي ، وكنتُ حديث التخرج من مدرسة الضباط ، كان لدي رئيس لا يتحمل المزاح ، وكان برتبة نقيب . أتعرف يا ليتوما ما الذي كان يفعله في مثل هذه الحالات ؟ كان يسحب مسدسه ويفزر العجلات . ألا تراودك نفسك في أن تفعل الشيء نفسه مع هذا السائق التعيس ؟

فدمدم المحصن وهو ساه :

– بلى يا سيدي الملازم .

تفحصه الملازم بفضول .

– أنت متأثر جداً بما سمعته ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

فوافق الحارس :

– لم أصدق بعد كل ما قالته السيدة عما جرى في هذا الجُحْر البائس .

قذف الملازم عقب سيجارته إلى الجانب الآخر من الطريق ، ومسح جبهته وعنقه بمنديله المبتل . وقال معترفاً :

- أجل ، لقد أخبرتنا بأمور رهيبة .

قال ليتوما :

- لم يرد إلى ذهني مطلقاً أن تكون القصة هكذا يا سيدي الملازم . لقد تخيلت أشياء كثيرة ، أما هذه فلا .

- أتعني أنك أصبحت تعرف كل ما حدث للنحيل يا ليتوما ؟

فتلعثم الحارس :

- حسن . تقريباً يا سيدي - ثم أضاف بشيء من الرهبة :- وحضرتك لم تعرف ؟

قال الضابط :

- أنا لم أعرف حتى الآن . وهذا شيء آخر عليك أن تتعلمه . فلا شيء يأتي بالهين يا ليتوما . الحقائق التي تبدو حقائق دامغة ، تصبح نصف حقائق أو لا تعود كذلك إذا أنت قلّبتها كثيراً ، وإذا ما نظرت إليها عن قرب .

دمدم ليتوما :

- حسن ، أجل بالتأكيد . ولكن أليس كل شيء واضحاً في هذه القضية ؟

قال الملازم ، دون أي أثر للسخرية في صوته ، وكما لو أنه يفكر بصوت عالٍ :

- للوهلة الأولى ، وحتى لو لم تصدق . لست متأكداً تماماً من أن من قتله هما الكولونيل ميندرياو والملازم دوفو . ولكن ما هو ثابت لدي أن هذين الاثنين هما من جاءا للبحث عنهما وأخذهما .

فهمس الحارس وهو يرمش :

- سأقول لك شيئاً . ليس هذا هو ما أثر بي . ولكن ، أتعرف

ماذا ؟ لقد عرفت الآن لماذا تجند النحيل متطوعاً في قاعدة تالارا . ليكون قريباً من الفتاة التي يحب . ألا يبدو لك رائعاً إقدام شخص على أمر كهذا ؟ مجيء شاب مُعْفى من الخدمة ، ليتطوع في سبيل الحب ، ليكون قريباً من الأنثى التي أحبها ؟

ضحك الملازم سيلفا :

- ولماذا يدهشك ذلك كثيراً .

فألح الحارس :

- إنه خارج عن المألوف ، شيء لا يمكن رؤيته كل يوم .

بدأ الملازم يلوح بيديه لسيارة تقترب من بعيد ، وسمعه ليتوما يقول ساخراً :

- أنت لا تعرف إذاً ما هو الحب . إنني مستعد للعمل كطيار ، وكجندي بلا رتبة ، وككاهن ، وكجامع قمامة ، بل ومستعد لأكل البراز إذا اقتضى الأمر ، لأكون قريباً من بدينتي يا ليتوما .

الفصل السادس

- ها هي ، ألم أقل لك ؟ ها هي قادمة - هتف الملازم سيلفا ، والمنظار ملتصق تماماً بعينيه . وكان يمط رأسه كما الزرافة :- دقيقة في موعدها مثل إنكليزية . أهلاً وسهلاً يا ميمتي . هلمي ، تعري لنراك . انحنِ يا ليتوما ، إذا ما رأتنا سترجع على أعقابها .

انسل ليتوما إلى ما وراء الصخرة حيث كانا رابضين منذ نصف ساعة على الأقل . أهي دونيا أدريانا هذه الغمامة البعيدة من الغبار ، القادمة من قطاع الشاطئ المسمى بونتا أريناس ، أم أن شبقهما يجعلهما يريان أوهام الملازم سيلفا ؟ كانا على صخرة السرطانات ، وهي مرصد طبيعي على شاطئ صخري راكد المياه ، تحميه من رياح الغروب صخرةٌ ناتئة في البحر وعدة مستودعات تابعة لشركة انترناشيونال بتروليوم كومباني . ووراءهما كان الخليج ينفتح بشكل مروحي مع ميناءيه ، ومصفاة البترول بأنابيبها وأعمدتها وسلالمها وأبراجها المعدنية المنتصبة ، وفوضى القرية . كيف اكتشف الملازم أن دونيا أدريانا تأتي لتستحم هنا ، في المساء ، حين تصبح الشمس حمراء ويخف الحر بعض الشيء ؟ إذ كانت غمامة الغبار هي دونيا أدريانا فعلاً ؛ وقد تعرف الحارس الآن على تقاطيع صاحبة المطعم الممتلئة ومشيتها الموزونة .

همس الملازم ، دون أن يرفع المنظار عن وجهه :

- هذا أكبر برهان على التقدير الذي قدمته في حياتي لرجل يا ليتوما . سترى الآن مؤخرة بدينتي ، ولا أقل من ذلك ، والثديين ، وبشي من الحظ سترى ما هو أكثر من ذلك . استعد يا ليتوما ، لأنك ستموت . ستكون هذه هي هدية عيد ميلادك ، صعودك ، كم أنت محظوظ يا رجل بعملك مع رئيس مثلي .

كان الملازم سيلفا يتكلم مثل ببغاء منذ وصولهما إلى هنا ، لكن ليتوما كان لا يكاد يسمعه ، إذ كان اهتمامه منصباً الآن على السرطانات أكثر من اهتمامه بمزاج رئيسه أو بوصول دونيا أدريانا . فالصخرة جديرة حقاً بهذا الاسم : كانت هناك مئات ، وربما آلاف السرطانات . كل واحد من هذه الجحور التي في الأرض هو مخبأ لها ، وكان ليتوما المفتون يراها تطل مثل بقع ترابية متحركة ، وحين تصبح خارج الجحر ، تشد نفسها وتنتفخ إلى أن تستعيد شكلها العصيّ على الفهم ، وتبدأ المسير مجانبة ، بطريقة متعثرة يستحيل معها معرفة إذا ما كانت تتقدم أم تتقهقر . ففكر : « مثلما هي حالنا في قضية بالومينو موليرو » .

أمره رئيسه بصوت خافت :

- انحنِ ، انحنِ ولا تدعها تراك . يا للروعة ، لقد بدأت بالتعري .

وخطر له بأن التل كله مخرم بالأنفاق التي حفرتها فيه السرطانات . وإذا ما تداعت الرابية فجأة ؟ سيهوي هو والملازم سيلفا إلى أعماق مظلمة ، رملية ، خانقة ، مأهولة بحشود من هذه القشريات الحية ، المسلحة بالأفكاك الملقطية . سيحتضران احتضاراً كابوسياً قبل أن يهلكا . تلمس الأرض . إنها صلبة لحسن الحظ .

همهم :

- أعـرني منظارك إذاً . تـدعونـي لأرى ، ثم ترى كل شيء وحـدك يا سيدي الملازم .

ابتسم الملازم :

- لسـبـب ما أنا رئيـسك أيها الأبله . - ولكنه قدم له المنظار وهو يقول :- انظر بسرعة ، لا أريد إفسادك .

وضع الحارس المنظار على عينيه وتطلع . رأى دونيـا أدريانا ، هناك في الأسفل ، إلى جوار الصخرة الناتئة ، وهي تخلع ثـوبها بكل هدوء . أهي تعـرف أننا نتلصص عليها ؟ أتتـوانى هكذا لاستـشارة الملازم ؟ لا ، فلحركاتها مرونة ولا مبالاة من يحس بأنه بعيد عن العيون . كانت قد طوت ثوبها ومـالت لتعلقه على صخرة لا تصلها رشقـات ماء البحر . وكما قال رئيسه ، كانت ترتدي شلحة وردية قصيرة ، واستطاع ليتوما رؤية فخذيها الثخينين كجذوع الغار ، وثدييها اللذين يبرزان حتى حافة الحلمة .

قال ذاهلاً : -

- من كان سيقول إن لدونيا أدريانا ، بالرغم من سنوات عمرها ، مثل هذه الأشياء الغنية .

فأنبه الملازم وهو ينتزع المنظار منه :

- لا تنظر إليها كثيراً لأنك ستبليها . الحقيقة أن الطيبات تبدأ الآن ، في الماء . حين تلتصق الشلحة بالجسد ، وتصبح شفافة . وهذا ليس استعراضاً للحراس يا ليتوما ، إنه لرتبة ملازم وما فوق فقط .

ضحك الحارس مجاملة ، وليس لأن نكات الملازم كانت تُفرحه . أحس بالقلق والضجر . أيكون ذلك بسبب بالومينو موليرو ؟ ربما ، فمذ رآه معلقاً ، مصلوباً ومحروقاً . في الأرض الحجرية ، وهو يشعر بأنه لن يستطيع انتزاعه من مخيلته ولو لحظة واحدة . لقد ظن أول الأمر أنه

سيتخلص منه حين يكتشفون القتلة وسبب قتله . أما الآن ، وبالرغم من أنهم قد أماطوا اللثام عن السر تقريباً ، فإن صورة الفتى ما زالت ترافقه ليلاً ونهاراً . وفكر : «إنك تمرمر حياتي يا نحيل البراز» . وقرر أن يطلب من رئيسه إجازة ليذهب إلى بيورا في نهاية الأسبوع . إنه يوم قبض الراتب . سيبحث عن جماعة المنيعين ويدعوهم إلى جولة شراب في حانة تشونغا ، وسيقضون الليلة في البيت الأخضر ، مع المومسات . فهذا سيريحه راحة عاهرة .

همس الملازم سيلفا :

– إن بدينتي تنتمي إلى عرق راق من النساء . أولئك اللواتي لا يستخدمن سراويل داخلية . تأمل في فضائل انطلاق الأنثى في الحياة بلا سروال داخلي .

قدم له المنظار ، وبالرغم من إجهاده لنظره ، لم يتمكن ليتوما من رؤية شيء ذي قيمة . كانت دونيا أدريانا تستحم عند الحافة ، تضرب الماء وترشه بيديها ، ووسط ما تنثره من ماء الأمواج وزبدها ، كان ما يمكن رؤيته من جسدها ، رغم شفافيه القميص الداخلي ، هو مجرد تفاهة .

فأعاد المنظار إلى الملازم شاكياً :

– لا بد أن نظري ليس بقوة نظرك ، أو ربما أنني لا أملك قوة مخيلتك يا سيدي الملازم . الحقيقة أنني لا أرى سوى الزبد .

وهمس الملازم وهو يرفع المنظار إلى عينيه من جديد :

– فلتتخوزق إذن . أما أنا فإنني أراها من أعلى إلى أسفل ، ومن أمام إلى وراء . وإن أردت أن تعرف ، فأستطيع أن أقول لك إن شعر عانتها أجعد كشعر زنجية . وإذا طلبت مني ، أستطيع أن أخبرك كم هو عدد الشعرات ، فأنا أراها بوضوح حتى أنني قادر على عدها شعرة شعرة .

– ثم ماذا ؟ – قال صوت الفتاة من ورائهما .

وقع ليتوما على الأرض جالساً . وفي الوقت نفسه ، التفت برأسه بعنف مما سبب له التواءً في العنق . وحتى وهو يرى أن تفكيره ليس صائباً ، فقد بقي على اعتقاده بأن من تكلم ليس امرأة وإنما هو سرطان .

سألت الفتاة :

– أية قذارات أخرى ستقولان – كانت تضع قبضتيها على وركيها مثل مصارع ثيران يؤدي حركة متكبرة : – أية سفالات أخرى أكثر مما قلتماه . أتوجد سفالات أكثر في المعجم ؟ لقد سمعتها كلها . ورأيت كذلك القذارة التي تفعلان . يا للقرف الذي تثيرانه فيّ .

انحنى الملازم سيلفا ليلتقط المنظار الذي أفلت من يديه عند سماعه صوت الفتاة . وكان ليتوما لايزال جالساً على الأرض ، وفي ذهنه فكرة مبهمة بأنه قد هرس لدى وقوعه قشرة سرطان فارغة ، ورأى أن رئيسه لم يستعد السيطرة على نفسه من وقع المفاجأة . كان ينفض الرمل عن بنطاله ، ليكسب الوقت . رآه يؤدي حركة اعتذار ، وسمعه يقول :

– إنّ مفاجأة السلطات بهذه الطريقة أثناء أداء عملها هو أمر خطير يا آنسة . ماذا لو أنني أطلقت عليك رصاصة وأنا ألتفت ؟

فتحدته بقهقهة ساخرة :

– أثناء أدائك لعملك ؟ هل عملك هو التجسس على النساء اللواتي يستحممن ؟

حينئذ فقط انتبه ليتوما إلى أنها ابنة الكولونيل ميندرياو . أجل أليسيا ميندرياو . فضرب قلبه صدره . ومن أسفل كان يجيء صوت دونيا أدريانا الغاضب . لقد كشفتهما إذن بفعل الضجة . وكما في حلم ، رآها تخرج من الماء زاحفة وتركض منحنية ، ومحاولة ستر نفسها ، بحثاً عن ثوبها ، بينما هي تهز قبضتها باتجاههما متوعدة .

وكررت الفتاة :

- إنكما تسيئان استخدام صلاحياتكما ، فضلاً عن كونكما خنزيرين . يا لرجال الشرطة . إنكما أسوأ بكثير مما يقوله الناس عن الشرطة .

فقال الملازم . بقناعة جعلت ليتوما يلتفت إليه فاغراً فاه :

- هذه الصخرة هي مرصد طبيعي لاكتشاف المراكب التي تحمل المهربات من الإكوادور ، إن كنت لا تعرفين ذلك يا آنسة . ثم إن الشتائم التي تطلقها سيدة هي زهور في نظر الرجال المحترمين . فخذي راحتك بالسباب إن كان هذا يثيرك .

ولاحظ ليتوما بطرف عينه أن دونيا أدريانا التي ارتدت ملابسها كيفما اتفق ، راحت تبتعد عن الشاطئ باتجاه بونتا أرينا ، هازة ردفيها بخطواتها النشطة ، وكانت لاتزال تشير إليهما بحركات غاضبة وهي مولية ظهرها . لا بد أنها تذكر أميهما كذلك . بقيت الصبية تتأملهما وكأن غضبها وانزعاجها قد تلاشيا . كانت ملوثة بالتراب من رأسها إلى أخمص قدميها ، وكان يستحيل معرفة لون بلوزتها التي بلا أكمام وبنطال رعاة البقر الذي ترتديه ، فقد كانا كلاهما . مثلهما كمثل حذائها اللين البسيط والشريطة التي تربط بها شعرها القصير ، معفرين بالاصفرار المائل إلى الرمادي ، وهو لون الرمال المحيطة بالمكان ذاته . وبدت لليتوما أكثر نحولاً مما كانت عليه يوم رآها تقاطعهم في مكتب الكولونيل ميندرياو . فهي تبدو بلا صدر تقريباً ، وبوركين شديدي الضيق ، وكأنها تجسيد لنموذج النساء الذي يطلق عليه رئيسه بازدراء اسم المرأة - الصفيحة . فهذا الأنف الصغير المتعجرف الذي يبدو وكأنه يضع ملاحظات على روائح البشر ، بدا له أكثر غطرسة من تلك المرة السابقة . كانت تشمهما وكأنهما لم يجتازا الاختبار بعد . أيكون لها من العمر ستة عشر عاماً ؟ ثمانية عشر ؟

قال الملازم سيلفا بلطف ، معتبراً الأمر منتهياً :

- ما الذي تفعله آنسة مثلك بَيْنَ كل هذه السرطانات .

ثم وضع المنظار في علبته وأخذ يمسح نظارته السوداء بمنديله :

- إنك بعيدة قليلاً عن القاعدة الجوية إن كنتِ تتنزهين . ماذا لو عضتك واحدة من هذه الدويبات ؟ ما الذي حدث لك ؟ هل انفجرت عجلة دراجتك ؟

واكتشف ليتوما وجود دراجة أليسا ميندرياو المعفرة بالغبار أيضاً ، على مسافة عشرين متراً إلى أسفل ، عند سفح الصخرة . كان الحارس يتأمل الفتاة ويحاول أن يتخيل بالومينو موليرو إلى جانبها . كانا يمسكان أحدهما بيد الآخر ، ويتبادلان الكلمات العذبة وينظر كل منهما مفتوناً إلى عيني الآخر . هي ، ترمش كفراشة ، وتهمس في أذنه : «غن لي ، هيا ، غن لي شيئاً جميلاً» . لا ، غير ممكن . من المستحيل تخيلهما هكذا .

قالت بجفاء ، وبلهجة حاسمة . وكان وجهها مرفوعاً وعيناها تقدران مدى تأثير كلماتها فيهما :

- أبي يعرف أنكما كنتما تستدرجان ريكاردو ليخبركما بشيء ، مستغلين كونه مخموراً ، الليلة الماضية .

لم يتأثر الملازم . وضع نظارته السوداء برصانة وبدأ النزول عن الرابية ، نحو الطريق ، منقاداً في الانحدار للسفح المائل . وفي الأسفل ، نفض ملابسه براحته وسأل :

- الملازم ديفو يدعى ريكاردو ؟ أنتم تدعونه ريتشارد إذن .

أضافت الفتاة بنوع من السخرية :

- وهو يعرف كذلك أنكما ذهبتما إلى أموتابي ، للقيام بتحريات عند السيدة لوبي .

كانت قامتها أقرب إلى القِصر . نحيلة ، لا تكاد تلفت الانتباه .

ولا يمكن القول إنها جميلة . أيكون بالومينو موليرو قد أحبها لكونها من تكون فقط ؟

وتابعت الفتاة :

- إنه يعرف كل ما فعلتماه .

لماذا تتحدث هكذا ؟ لماذا تقول الأشياء بهذه الطريقة الغريبة ؟ إذ لا يبدو على أليسيا ميندرياو أنها تهددهما ، بل إنها تبدو وكأنها تسخر منهما أو تتسلى في دخيلتها ، كما لو أنها تقوم بشقاوة . كان ليتوما ينزل الرابية الآن أيضاً ، قافزاً وراء الفتاة . وكانت السرطانات تركض بين نعليه في خط متعرج مشوش . ولم يكن هناك أحد في المنطقة المحيطة كلها . إذ لا بد أن رجال المستودعات قد غادروا كذلك منذ حين ، لأن الأبواب كانت موصدة ولم تكن تصدر أية أصوات من الداخل . وهناك في الأسفل ، عند الشاطئ ، كان زورق جر يشق البحر ، بين الميناءين ، مطلقاً سحابة مجعدة من الدخان الرمادي ومطلقاً صفارته بفواصل متوالية . وكانت توجد مجموعات بشرية دائبة الحركة عند الشاطئ . وصلوا إلى الدرب الذي يقود من الرابية الصخرية إلى السياج الفاصل ما بين منشآت شركة الأنترناشيونال وقرية تالارا . فأمسك الملازم الدراجة وراح يجرها بيد واحدة . كانوا يسيرون متمهلين ، وهم في صف واحد . وتحت أقدامهم كانت تصر قشور السرطانات أو سرطان حي وهو يُهرس .

قالت باللهجة الغامضة نفسها التي تجمع بين الغضب والسخرية :

- لقد تبعتكما من المفوضية ولم تنتبها إلى ذلك . وعند السياج ، لم يسمحوا لي بالمرور ، لكنني هددتهم بأبي فتركوني أمرّ . أما أنتما فلم تشعرا بي . وسمعتكما تقولان كل تلك البذاءات وأنتما هائمان في القمر . ولو أني لم أكلمكما ، لكنت ما أزال أتجسس عليكما .

فوافق الملازم وهو يضحك بخفوت . وكان يهز رأسه من جانب إلى

آخر محتفلاً بها . وقال معتذراً :

- حين يكون الرجال مع الرجال ، فإنهم يتكلمون ببذاءات . لقد جئنا للقيام باستطلاع ، لنرى إن كنا نلقي القبض على أحد المهربين . وليس ذنبنا أن هناك بعض العناكب ممن يرغبن في الاستحمام هنا في مثل هذه الساعة . إنها مصادفات الحياة . أليس كذلك يا ليتوما ؟

فوافق الحارس :

- أجل يا سيدي الملازم .

وأضاف الملازم جاعلاً صوته كالسكَّر :

- نحن رهن إشارتك على أي حال فيما تعرضين يا آنسة ميندرياو . قولي ما تشائين! أم أنك تفضلين الحديث في المركز ؟ ففي الظل ، وأثناء تناول مرطب مياه غازية يمكن التحدث بصورة أفضل . ولكنني أنبهك إلى أن مفوضيتنا ليست مريحة مثل قاعدة والدك الجوية .

لم تقل الفتاة شيئاً . وبدا لليتوما أنه يسمع سريان الدم في أوردته ، بطيئاً ، كثيفاً ، أحمر قاتماً ، ويسمع خفق نبضه وصدغيه . اجتازوا البوابة الحديدية ، وحيا الحارسُ المدني المناوب - لوثيو تينوكو ، من هوانكابامبا - الملازم بتحية عسكرية . كان هناك ثلاثة حراس كذلك من جهاز أمن شركة انترناشيونال . وقفوا يتأملون الفتاة مستهجنين رؤيتها معهما . هل شاع في القرية نبأ ذهابهما إلى أموتابي ؟ الذنب لا يقع على عاتق ليتوما على أي حال . فقد نفذ بدقة أمر رئيسه بعدم التفوه بكلمة واحدة لأي كان حول ما قالته لهما دونيا لوبي . مروا مقابل مستشفى الشركة ذي الأخشاب البراقة المطلية باللون الأخضر . وعند مقر قيادة الميناء ، كان يوجد بحاران يقومان بالحراسة ، وبندقيتاهما على الكتف . غمز أحدهما بعينه لليتوما وكأنه يقول له : « أية رفقة هذه » . ومرّ سرب من النوارس قريباً جداً . خافقاً أجنحته وزاعقاً . لقد كانت بداية الغروب . ومن خلال سلالم وشرفات

الفندق الملكي ، وهو الفندق الوحيد في القرية ، رأى ليتوما الشمس الآخذة بالغرق في البحر . وكانت برودة لطيفة ومضيافة تحل محل لهيب النهار .

ولَمح الملازم سيلفا بكياسة :

- هل يعرف الكولونيل ميندرياو بأنك أتيت لزيارتنا ؟

فرفعت الفتاة صوتها :

- لا تتصرف كأحمق . إنه لا يعرف بالطبع .

وفكر ليتوما : « الآن سيعرف » . جميع الناس كانوا يبدون الدهشة لدى رؤيتهم ، ويلاحقونهم بنظراتهم وهم يدمدمون .

وألح الملازم سيلفا :

- أجئت لتقولي لنا فقط إن الكولونيل قد علم بأننا كنا نستدرج الملازم دوفو والسيدة لوبي في أموتابي ؟ - كان يتكلم ناظراً إلى الأمام ، دون أن يلتفت نحو أليسيا ميندرياو ، وليتوما الذي تخلف قليلاً ، كان يرى أن رأسها يتجه إلى الأمام كذلك ، متفادية الالتفات بوجهها نحو الملازم . وسمعها تجيب :

- أجل .

وفكر ليتوما : « إنها تكذب » . ما الذي جاءت لتقوله لهما ؟ هل بعث بها الكولونيل ؟ على أية حال ، يبدو أن الأمر ينهكها ؛ أو ربما أنها فقدت الحماس . كانت قد قطبت وجهها . وكان فمها مفتوحاً بعض الشيء ، وجناحا أنفها المغضن ينبضان بجزع . كانت بشرتها شديدة البياض ، ورموشها طويلة جداً . أهذا المزاج الحساس الرقيق ، مزاج الطفلة المدللة . هو الذي بعث الجنون في النحيل ؟ وليكن ما يكون هذا الذي جاءت تقوله لهما ، فقد ندمت ولن تقوله .

دمدم الملازم وقد أصبح قطراً حلواً :

– لطف منك أن تأتي للتحدث معنا . إنني أشكرك حقاً .

ساروا حوالى خمسين متراً أخرى صامتين ، يستمعون إلى نعيق النوارس وصوت البحر . وفي أحد البيوت الخشبية ، كانت بعض النسوة يفتحن بطون الأسماك وينتزعن أحشاءها بمهارة . وكانت هناك مجموعة من الكلاب تتقافز حولهن مكشرة عن أنيابها ، بانتظار الفضلات . وكانت تنبعث رائحة قوية وكريهة .

وسمع نفسه يقول فجأة :

– كيف كان بالومينو موليرو يا آنسة ؟ – فاقشعر ظهره من المفاجأة ، إذ تكلم على نحو مفاجئ ودون تفكير . لكن الملازم والفتاة لم يلتفتا إليه . كان ليتوما يمشي متعثراً على بعد نصف متر وراءهما .

سمعها تقول :

– خبز قربان رباني – ثم أضافت بعد توقف قصير : – ملاك نازل من السماء .

لم تقل ذلك بصوت مرتعش وملون بالمرارة والشوق . كما أنها لم تقله بحنان . وإنما بتلك النبرة الفريدة ذاتها التي تجمع ما بين البراءة والسخرية ، والتي يبرز منها أحياناً وميض غضب .

دمدم ليتوما ، حين أخذ الصمت يطول :

– هذا ما يقوله جميع من عرفوه . يقولون إنه كان طيباً جداً .

وبعد لحظة قال الضابط :

– لا بد أنكِ تأثرت لموت الفتى يا آنسة أليسيا ، أليس كذلك ؟

لم تجب أليسيا ميندرياو بشيء . كانوا يجتازون مجموعة من المساكن التي لم ينته بناؤها ، فبعضها مازال بلا سقف ، وغيرها لم تكتمل جدرانها . وكان لجميع تلك البيوت شرفات مستندة إلى دعائم ،

وقد أخذت ألسنة ماء البحر تتغلغل فيما بينها . المد البحري سيبدأ إذاً . كان هناك رجال هرمون يجلسون على الأدراج بقمصانهم الداخلية ، وأطفال عراة يلتقطون المحار ، وجماعات من النساء . وكانت تُسمع قهقهات ، وتنبعث رائحة السمك قوية نفاذة .

وسُمع صوت ليتوما يقول :

– لقد قال لي أصدقائي بأنني سمعته يغني مرة في بيورا ، منذ زمن بعيد . لكنني ، وبالرغم من كل ما حاولته ، لم أتذكر ذلك . يقولون إنه كان يغني أغنيات البوليرو بصورة رائعة .

فصححت له الفتاة وهي تهز رأسها بنشاط :

– وكذلك الموسيقا الكريولولية . وكان يعزف الجيتار عزفاً عظيماً أيضاً .

سُمع صوت ليتوما يقول :

– صحيح ، الجيتار . لقد كان هاجس والدته دونيا أسونتا ، سيدة من كاستييا . إنها تريد استعادة جيتار ابنها . من تراه سرقه ؟

– إنه عندي – قالت أليسيا ميندرياو . وانقطع صوتها فجأة ، وكأنها لم تكن ترغب في قول ما قالته .

بقوا صامتين ثانية لبعض الوقت . كانوا يتقدمون نحو قلب تالارا ، وكلما توغلوا في عقدة المساكن ، كانوا يجدون مزيداً من الناس في الشارع . ووراء قضبان النوافذ ، وعلى قمة صخرة الفنار وفي بونتا أرينا ، حيث كانت بيوت الأمريكيين وكبار موظفي شركة الأنترناشيونال ، كانت أعمدة النور مضاءة ، رغم أن الوقت مازال نهاراً . وكذلك هناك في الأعلى علي الجروف ، وعند مياه البحر الضحلة ، وفي القاعدة الجوية . وفي أحد أطراف الخليج ، كانت ترتفع من برج أحد آبار البترول قنزعة نارية ، حمراء وذهبية ، تبدو وكأنها سرطان عملاق يبلل قوائمه .

وسُمع صوت ليتوما يقول بخفوت كالعادة :

– السيدة المسكينة تقول : « حين تجدون الجيتار ، ستجدون الذين قتلوه » . وليس هذا لأن دونيا أسونتا تعرف شيئاً . مجرد حدس أمٍّ وامرأة .

أحس بأن الملازم قد عاد ينظر إليه فصمت .

وقالت الفتاة :

– كيف هي ؟

لقد التفتت الآن ، لثانية واحدة ، ورأى الحارس وجهها : كان أعزل ، شاحباً ، نزقاً ، فضولياً .

سألها :

– أتعنين دونيا أسونتا ، والدة بالومينو موليرو ؟

فأكدت الفتاة ذلك بإيماءة ضجرة وهي تسأل :

– هل هي تشولا[1] ؟

بدا لليتوما أن رئيسه قد أفلت ضحكة . وسمع نفسه يقول :

– حسن ، إنها امرأة من عامة الشعب ، مثل جميع هؤلاء الناس الذين نراهم ، مثلي أنا – وفوجئ بالنزق الذي كان يتكلم به : – طبعاً ليست من طبقتك أو طبقة الكولونيل ميندرياو . أهذا ما كنتِ تودين معرفته ؟

قالت أليسيا ميندرياو ، مرققة نبرة صوتها ، وكما لو كانت تكلم نفسها :

---

١ تشولو :(cholo) المولد من أب أبيض وأم هندية ، وتطلق كذلك عى الهندي المتحضر .

- لم يكن يبدو عليه أنه تشولو . وكان شعره ناعماً ، بل وأشقر إلى حد ما . وهو أكثر الشبان الذين رأيتهم في حياتي أدباً . فلا ريكاردو ، ولا حتى أبي مؤدبان مثله . ما كان أحد سيصدق بأنه تعلم في مدرسة عامة ، وأنه كان يقطن حي لاكاستييا . والشيء التشولو الوحيد فيه هو اسمه هذا ، بالومينو ، وكنيته الثانية التي كانت أسوأ : تيميستوكليس .

وبدا لليتوما أن رئيسه عاد لإفلات ضحكة مكتومة . أما هو ، فلم تكن به رغبة في الضحك من الأشياء التي تقولها الفتاة . كان مشوشاً وساهماً . أتكون حزينة ، أم أنها غاضبة لموت النحيل ؟ لم تكن هناك من وسيلة لاكتشاف ذلك . فابنة الكولونيل تتكلم كما لو أن بالومينو موليرو لم يمت بتلك الطريقة الوحشية التي يعرفانها ، وكما لو أنه مازال حياً . أتكون نصف مخبولة ؟

سألها الملازم سيلفا :

- أين تعرفتِ على بالومينو موليرو ؟

كانوا قد وصلوا إلى وراء الكنيسة ، حيث الجدار الذي يستخدم كشاشة لسينما السيد تيوتونيو كاييه فرياس الجوالة . إنها سينما بلا سقف ولا مقاعد ، في العراء . والزبائن الذين يودون مشاهدة الفيلم جلوساً عليهم أن يحملوا مقاعدهم معهم . ولكن معظم أهالي تالارا كانوا يجثون أو يتمددون على الأرض . ولاجتياز الحبل الذي يحد مجال المحل الوهمي ، لا بد من دفع خمسة ريالات . أما الملازم وليتوما فكانا معفيين من الدفع . والذين لا يريدون دفع نصف السول ، يمكنهم رؤية الفيلم مجاناً ، من خارج الحبل الحاجز ، حيث الرؤية من هناك ممكنة ، لكنها غير واضحة وتسبب تشنجات في العنق . كان دون تيوتونيو كاييه فرياس يجهز حينئذ جهاز العرض . ولم يكن يملك سوى جهاز واحد ، يعمل بفضل وصلة ابتكرها هو نفسه ، تحمل التيار الكهربائي من عمود النور الذي عند الناصية . وكان يضطر لقطع العرض بعد انتهاء

كل لفافة من الفيلم ريثما يركب اللفافة التالية . فكانت مشاهدة الأفلام تجري بصورة متقطعة مما يجعلها تبدو طويلة جداً . ومع ذلك ، كانت السينما تغص بالجمهور دوماً ، وخصوصاً في الصيف ، وفكر ليتوما : « منذ حادثة النحيل تقريباً لم أشاهد السينما » . ما الذي سيعرضونه الليلة ؟ فيلم مكسيكي ، وإن لم يكن كذلك ففيلم « نهر خفي » لدولوريس دل ريو وكولومبا دومينغيث .

قالت الفتاة فجأة ، وكان ردها متأخراً إلى حد أن ليتوما نسي عن أي سؤال تجيب :

- في عيد ميلاد لالا ميركادو ، هناك في بيورا . كانوا قد تعاقدوا معه ليغني في الحفلة . جميع الفتيات قلن كم هو جميل غناؤه ، وكم هو بديع صوته ، وكم هو شاب جميل ، لا يبدو أنه تشولو . وفعلاً ، لم يكن يبدو كذلك .

سألها الملازم :

- هل خصّكِ بأغنية ؟ - وكان يتكلم بتهذيب بالغ . بينما ليتوما يكتشف في كل لحظة تكتيكاً جديداً من تكتيكات رئيسه . وهذا التكتيك الأخير هو استخدام الأساليب الطيبة .

ردت الفتاة بالإيجاب :

- ثلاث أغنيات : « الليلة الأخيرة معك » ، و« شعاع القمر » ، و« الدمية الجميلة » .

« ليست بالفتاة الطبيعية ، إنها مخبولة » ، فكر ليتوما جازماً . بدأت دراجة أليسيا ميندرياو التي يجرها الملازم سيلفا بيده اليسرى ، تصر صريراً جارحاً ، يعلو ويتوقف بفواصل منتظمة . وقد أثار هذا الصرير المتواتر أعصاب ليتوما .

أضافت الفتاة :

- ورقصنا معاً رقصة واحدة . لقد رقص مع جميع الفتيات ، مرة واحدة مع كل منهن . ومع لالا ميركادو وحدها رقص مرتين . لكنه فعل ذلك لأنها ربة البيت وصاحبة عيد الميلاد المحتفى بها ، وليس لأنها أعجبته أكثر . ولم يجد أحد غضاضة في مراقصته لنا ، فجميع الفتيات كن راغبات في أن يدعوهن إلى الرقص . كان يتصرف مثل الناس المحترمين . وكان يرقص بشكل جيد .

« الناس المحترمين » ، فكر ليتوما ، وهو ينحرف كي لا يدوس نجمة بحر جافة ومغطاة بالنمل . أتعتبر أليسيا ميندرياو الملازم سيلفا من الناس المحترمين ؟ أما هو فلا تعتبره كذلك بالطبع . وفكر : « إنني تشولو في أربع جنباتي . من حي لامانغاتشيريا . بكل فخر » . كانت عيناه نصف مغمضتين ، ولم يكن يرى مساء تالارا الذي كان يتراجع الآن أمام الليل بسرعة ، وإنما صخب وأبهة الصالة والحديقة ، الغاصة بالشبان والفتيات ذوي الملابس الفاخرة ، في حي البيض المجاور لمنطقة الرمل حيث حانة لاتشونغا - حي بوينس آيرس - ، في بيت تلك المدعوة لالا ميركادو . هذان اللذان يرقصان في ذلك الركن ، وينظران إلى بعضهما بإمعان ، ويتبادلان الحديث بعيونهما ، هما أليسيا ميندرياو والنحيل . لا ، مستحيل . ومع ذلك كانت تروي الأمر :

- حين دعاني للرقص قال لي إنه لم يكد يراني حتى وقع في هواي - سمعها ليتوما تتكلم . ولم تكن تبدو في صوتها رنة حزن أو كآبة حتى وهي تقول هذا . كانت تتكلم بسرعة وبلا قلب ، كما لو أنها تنقل رسالة : - قال لي إنه كان يؤمن دوماً بالحب من أول نظرة وهو متأكد الآن من وجوده ؛ لأنه أحبني هناك حيث رآني بالذات ، وإنني أستطيع أن أضحك منه إذا شئت ، ولكن ما يقوله هو الحقيقة ، وإنه لن يحب إلى الأبد امرأة أخرى في الدنيا سواي . وقال لي إنه سيستمر حتى الموت في حبه لي حتى لو لم أهتم به ، وحتى لو بصقت عليه وعاملته ككلب .

وفكر ليتوما : «هكذا كان إذاً» . هل الفتاة تبكي ؟ لا شيء من هذا . لم يكن بإمكان الشرطي رؤية وجهها - فهو ما زال يسير متخلفاً خطوة عن الملازم وعنها - لكن صوتها لم يكن منتحباً ، وإنما جافاً وواثقاً ، وفيه صرامة تامة . وكانت تبدو في الوقت نفسه وكأنها تتكلم عن شخص آخر غيرها ، وكأن كل هذا الذي ترويه لا يخصها هي بالذات ، وكما لو لم تكن في هذه القصة دماء وموت .

وواصلت بعد توقف قصير :

- قال إنه سيعزف لي سيرنادات ، وإنه سيغني لي كل ليلة ، حتى يجعلني أحبه .

كان صرير الدراجة يسبب لليتوما تشنجاً لا تفسير له ؛ فقد كان يترقب الصرير ، وحين يسمعه تسري في جسده قشعريرة . سمع صوت رئيسه ، وكان الملازم يزقزق مثل عصفور :

- أهذا ما حدث ؟ أهذا ما جرى ؟ هل وفى بوعده ؟ هل جاء ليعزف السيرنادات عند بيتك ، في قاعدة بيورا الجوية ؟ وهل انتهيت إلى الوقوع في هواه ؟

ردت الفتاة :

- لست أدري .

«لا تدري ؟ كيف يمكنها ألا تدري ذلك ؟» فكر الحارس . وبحث في ذاكرته عن المرة التي أحب فيها بقوة أكبر . أكان حبه لميتشيه ، عشيقة خوسيفينو ، تلك الحنطية ذات الجسد المنحوت التي لم يتجرأ يوماً على مصارحتها ؟ أجل ، إنها هي ، كيف يمكن للمرء ألا يعرف إن كان عاشقاً أم لا ؟ أية حماقة هذه . إما أنها مخبولة ، نصف مجنونة ، نصف مغرورة ، أو أنها تتعمد التظاهر بالبلاهة لإرباكهما ؟ أيكون الكولونيل قد دربها لتفعل هكذا ؟ هل فعل ذلك كثيراً ؟

قالت الفتاة :

- يومياً . منذ حفلة لالا ميركادو . لم يتخلف يوماً واحداً ، إلى أن نقلوا أبي إلى هنا .

كان عدد من الصبيان الذين يحملون المقاليع يقذفون قط الصيني تانغ ، صاحب الحانة . وكان القط يموء مرتعباً وهو يذرع سطح الحانة من جانب إلى آخر . ظهر الصيني تانغ من إحدى الزوايا مسلحاً ببندقية ، فهرب الصبية ضاحكين .

زقزق الملازم سيلفا :

- وماذا كان يقول أبوك عن تلك السيرنادات ؟ ألم يلحظ ذلك قط ؟

وردت الفتاة :

- كان أبي يعرف أنه يأتي ليعزف لي السيرنادات ، أم أنك تظن أن أبي أصم ؟

وبدا لليتوما أن أليسيا ميندرياو قد ترددت للمرة الأولى . كما لو كانت على وشك أن تقول شيئاً ثم ندمت .

كرر رئيسه :

- وماذا كان يقول ؟

وأكدت الفتاة بالجدية القاتلة التي تكلمت بها دوماً :

- إنني بالنسبة له دون شك ملكة إنكلترا . وحين أخبرت باليتو بذلك قال لي : « والدك مخطئ . أنت بالنسبة لي أكثر بكثير من ملكة إنكلترا . من الأفضل القول إنك مريم العذراء » .

وخيل لليتوما أنه سمع للمرة الثالثة ضحكة الملازم سيلفا الخافتة الساخرة . باليتو ؟ أهكذا أعادت تعميد بالومينو ؟ أي أن هذا اللقب

المضحك ، باليتو ، هو اسم محترم ، وبالومينو أو يتميستوكليس هي أسماء تشولية . وفكر : « اللعنة . يا لهؤلاء البيض من معقدين » .

كانوا قد وصلوا إلى موقع الحرس المدني . وكان الحارس المناوب ، راميرو ماتيلو ، وهو تشيكلاني ، قد انصرف دون أن يترك أي خبر ، ووجدوا الباب مقفلاً . فأسند الملازم الدراجة إلى الجدار ليفتحه .

ثم قال الضابط راجياً وهو يحني رأسه احتراماً :

– تفضلي واستريحي قليلاً . نستطيع أن نقدم لك مرطباً أو فنجان قهوة . تفضلي يا آنسة .

كان الليل قد خيم . وفي الداخل ، وبينما هما يشعلان مصابيح البارافين ، بقيا في الظلام للحظة ، يصطدمان بالأشياء . وانتظرت الفتاة ساكنة عند الباب . لا ، لم تبك . كان ليتوما يرى ظلها مرسوماً على اللوحة حيث يعلقون الأوامر والمهمات اليومية ، وهو يفكر بالنحيل . وكان قلبه مقبوضاً وبه قلق عظيم . وفكر : « لا أستطيع تصديق هذا الذي يحدث » . أقالت لهم تلك الصورة الثابتة كل هذا عن بالومينو موليرو ؟ إنه يراها ، ومع ذلك ، فهو يشعر وكأنه لا وجود للفتاة ، وكأنها لم تقل شيئاً ، وكما لو أن كل هذا ليس سوى أمر يختلقه هو نفسه .

كان الملازم يشعل البريموس ، حيث يوجد دوماً إبريق ممتلئ بالماء :

– ألم يتعبكِ المشوار ؟ أحضر كرسياً للآنسة يا ليتوما .

جلست أليسيا ميندرياو على حافة الكرسي الذي قدمه لها الحارس . كانت تولي ظهرها إلى الباب الخارجي ومصباح المدخل ؛ وكان وجهها لايزال في الظل تقريباً بينما تحيط بشبحها هالة صفراء . إنها تبدو وهي هكذا أصغر مما هي عليه . أتكون ما زالت تلميذة بعد ؟ في

أحد البيوت المجاورة كانوا يقلون شيئاً . وكان صوت مخمور يدندن من بعيد شيئاً حول بايتا .

أنَّبه الملازم :

- ما الذي تنتظره لتقدم مرطباً للآنسة يا ليتوما .

أسرع الحارس لإحضار زجاجة باستورينا من السطل المملوء ماء ، حيث يضعون الزجاجات لتبقى باردة . فتحها وقدمها إليها معتذراً :

- لا كؤوس لدينا ولا أكواب . عليك أن تشربيها من الزجاجة مباشرة .

تناولت زجاجة الباستيورينا ورفعتها إلى فمها كإنسانة آلية . أهي مخبولة ؟ أتتألم في أعماقها ولا تريد إظهار ذلك ؟ أيراها غير طبيعية ؟ وبدا لليتوما أن الفتاة قد نُوِّمت . كانت تبدو وكأنها لا تدرك أنها معهما هنا ولا تذكر ما قالته لهما . أحس ليتوما بالحرج والضيق . وراوده الهاجس . وماذا لو جاء الكولونيل فجأة إلى الموقع ، برفقة دورية ، ليحاسبهما على هذه الأحاديث مع ابنته ؟

قال الملازم :

- تفضلي ، تناولي هذه القهوة أيضاً - وقدم لها فنجان الصفيح بعد أن ألقى فيه ملعقة صغيرة من البن : - كم ملعقة سكر تريدين ؟ واحدة ، اثنتان ؟

سألت الفتاة بغتة . ولم يحمل صوتها قلقاً وإنما طراوة غضب :

- وماذا سيحدث لوالدي ؟ هل سيزجون به في السجن ؟ أيعدمونه رمياً بالرصاص لهذا ؟

لم تكن قد تناولت الفنجان الصفيحي بعد ، ورأى ليتوما رئيسه يرفعه إلى فمه ويتناول منه رشفة طويلة . جلس الملازم مجانبة على

إحدى زوايا الطاولة . وفي الخارج كان المخمور قد توقف عن الغناء ، وأخذ يتكلم بتنويعات حول الموضوع نفسه الآن ، قائلاً إن أسماك الليا في بحر بايتا قد عضته وسببت له قروحاً في قدمه ، وإنه يبحث عن امرأة حنون تمتص له السم منها .

فأكد الملازم سيلفا نافياً برأسه :

– لن يحدث شيء لوالدك . ولماذا سيحدث له أي شيء ؟ لن يفعلوا شيئاً ضده في الغالب . لا تفكري بهذا أبداً يا آنسة أليسيا . ألا تريدين حقاً فنجاناً من القهوة ؟ لقد شربت هذا ، لكنني سأعد لك فنجاناً آخر في الحال .

فكر ليتوما : « إنه يعرف كل الأساليب . وهو قادر على جعل الأبكم يتكلم » . كان قد تقهقر جلسة إلى أن استند إلى الجدار . وراح يتأمل ، بانحناءة خفيفة ، بروفيل وجه الفتاة ، وأنفها الوقور ، المدقِق ، وفهم فجأة دوافع بالومينو : فهي ليست آية في الجمال ، ولكن فيها شيئاً غامضاً من الفتنة . هناك شيء في هذا الوجه البارد يمكنه بعث الجنون في رجل . انتابته مشاعر متناقضة . وكان يريد من الملازم أن ينتهي ويجعل أليسيا ميندرياو تقول كل ما تعرفه ؛ ولم يكن يعرف في الوقت نفسه ، لماذا سيشعر بالأسى إذا ما أفضت لهما هذه الصغيرة بسرها . كان يرى وكأن أليسيا ميندرياو واقعة في شرك . ويشعر برغبة في إنقاذها . أتكون مخبولة حقاً ؟

ولمح الملازم وكأنه يموت أسى :

– ربما كان الغيور هو الذي سيلحق به مكروه . أعني ريكاردو دوفو . أو ريتشارد . أنتم تسمونه ريتشارد ، أليس كذلك ؟ والغيرة بالطبع عامل مخفف في اعتبار أي قاض يعرف القلب البشري . أما بالنسبة لي فإنني أرى أن الغيرة هي حالة مخففة على الدوام . فأي رجل يحب أنثاه كثيراً هو رجل غيور . أنا أعرف هذا يا آنسة ، لأني أعرف ما هو الحب ، وأنا غيور كذلك . الغيرة تشوش العقل ، ولا تسمح

بالتفكير المتعقل ، مثلها مثل الخمر . فإذا استطاع عشيقك أن يثبت أنه حين فعل ما فعله ببالومينو موليرو كان معمياً بالغيرة – وهذه هي الكلمة المهمة مـ عـ مـ ي ، فتذكريها – فقد يعتبرونه غير مسؤول عن أعماله لحظة وقوع الجريمة . هذا ممكن بقليل من الحظ ومحامي دفاع جيد . أي أنك يجب ألا تقلقي كثيراً حتى على الغيور يا آنسة ميندرياو .

رفع الفنجان الصفيحي إلى فمه ورشف القهوة مثيراً صوتاً صاخباً . وكان ظاهراً على جبهته الأثر الذي تركته حافة القبعة ، ولم يكن ليتوما قادراً على رؤية عينيه المختفيتين وراء زجاج نظارته القاتم : كان يرى الشارب والفم والذقن فقط . لقد سأله مرة : «لماذا لا تنزع نظارتك في الظلام يا سيدي الملازم ؟» ورد عليه ساخراً : «للتضليل» .

همست الفتاة :

– لست قلقة . إنني أكرهه ، وأتمنى أن تحلّ به أسوأ المصائب . وأقول له ذلك في وجهه دوماً . لقد خرج في إحدى المرات وعاد حاملاً مسدسه ، وقال لي : «هكذا ينطلق . بالضغط هنا . خذيه . وإن كنتِ تكرهينني حقاً إلى هذا الحد ، فأنا أستحق أن تقتليني . افعلي ذلك ، اقتليني» .

خيم صمت طويل ، كانت تقطعه فرقعة الزيت في مقلاة البيت المجاور ومونولوج المخمور المشوش الذي كان يبتعد الآن : إذ لا أحد يحبه ، وسيذهب إذاً لمقابلة ساحرة في اياباكا ، وهي ستشفي قدمه الجريحة ، آي ، آي ، آي .

أكد الملازم سيلفا :

– أنا واثق من كونك إنسانة نبيلة القلب ، ولن تقتلي أحداً أبداً .

فصعقته أليسيا ميندرياو التي كان فكها يرتعش ولم تعد فتحتا أنفها شديدتي الانفراج :

– لا تجعل من نفسك أبله أكثر مما أنت عليه . ولا تتحامق بمعاملتي وكأنني حمقاء أخرى مثلك . أرجوك . إنني إنسانة راشدة .

سعل الملازم سيلفا :

– أعذريني . لم أكن أعرف ما أقول . فما سمعته منك شوشني . أقول لك بصراحة .

وسُمع صوت ليتوما وهو يقول منِ بين أسنانه :

– أي أنك لا تعرفين إن كنتِ تحبين بالومينو موليرو . ألم تحبيه إذاً ، ولو قليلاً من الحب ؟

– لقد أحببته بأكثر من قليل من الحب – ردت الفتاة بسرعة ، دون أن تلتفت لتنظر باتجاه الحارس . كان رأسها ثابتاً ، ويبدو أن غضبها قد تبخر بالسرعة التي ولد بها . وكانت تنظر إلى الفراغ :– لقد أحببتُ باليتو كثيراً . ولو وجدنا الكاهن لكنت قد تزوجت منه . ولكن هذا الحديث عن الوقوع في الحب مقرف ، وما كان بيننا ليس كذلك . لقد كان شيئاً طيباً ، أو لنقل إنه كان شيئاً جميلاً . أتراك تتحامق أنت أيضاً ؟

– يا لأسئلتك يا ليتوما – سمع رئيسه يدمدم . لكنه أدرك أنه لا يؤنبه ، وأنه في الواقع لا يوجه حديثه إليه . فالتعليق كان جزءاً من تكتيكه لمواصلة استدراج لسان الصبية :– أتظن أن الآنسة كانت ستهرب معه لو لم تكن تحبه ؟ أم أنك تظنه اختطفها عنوة ؟

لم تقل أليسيا ميندرياو شيئاً . وكانت تحوم وتطن حول مصباح البارافين أعداد متزايدة من الحشرات . وأصبح صوت تيار مياه الشاطئ يُسمع أكثر قرباً الآن . فالمد البحري مازال يتعاظم . لا بد أن الصيادين يعدون شباكهم ؛ ولا بد أن دون ماتياس كيريكوتييو ومساعديه يسحبون الآن الزورق ليون دي تالارا إلى البحر ، أو أنهم أصبحوا يجذفون بعيداً عن الميناء . تمنى لو أنه هناك ، معهم ، وليس هنا ليسمع

هذه الأمور . ومع ذلك ، سمع صوته يهمس :

- وماذا عن عشيقك إذاً يا آنسة ؟

وبدا له وهو يتكلم بأنه يتوازن على حبل متهدّل .

وصحح له الملازم :

- تعني عشيقها الرسمي - ثم جعل صوته أكثر رقة وهو يتوجه إليها : - بما أنك أحببت بالومينو موليرو ، فإنني أتصور أن الملازم دوفو ليس سوى هذا : عشيق رسمي ، لتغطية المظاهر أمام أبيك . لا شيء سوى هذا ، مجرد ستار ، أليس كذلك ؟

فوافقت الفتاة بحركة من رأسها :

- أجل .

وواصل الملازم سبره :

- كي لا ينتبه أبوك إلى غرامياتك مع بالومينو موليرو . ففي موقع كموقعه ، لن يجد الكولونيل أية ظرافة في إقامة ابنته علاقات غرامية مع جندي طيران .

كان طنين الحشرات المصطدمة بالمصابيح يسبب لليتوما تشنجاً كذاك الذي كان يسببه صرير الدراجة من قبل .

- وهل تطوع ليكون قريباً منك فقط ؟ - سمع نفسه يقول . وانتبه إلى أنه لم يدارِ مشاعره هذه المرة : كان صوته ينضح بالأسى العميق الذي يبعثه النحيل فيه . فما الذي رآه ذلك الشاب في هذه الفتاة نصف المجنونة ؟ ألأنها من أسرة راقية فقط ، ولأنها بيضاء ؟ أم أنه سُحر بتقلب مزاجها . . بهذه الاختطافات اللامعقولة التي تنقلها في ثوان من الغضب إلى اللامبالاة ؟

فكر الملازم بصوت عالٍ ، وكان يشعل سيجارة :

- والغيور المسكين لم يكن يعرف شيئاً . وحين بدأ يفهم ، أكلته الغيرة . فأ- ع - مـ - ي ، أجل يا سيدي . وفعل ما فعل ، ثم جاء إليك وقد أفقده الذعر عقله ، ليبكي قائلاً : «أنا قاتل يا أليسيا . لقد نكلت بالطيار الذي هربتِ معه وقتلتُه» . فزجرتِه ، وقلتِ له إنكِ لم تحبيه يوماً ، وإنكِ تكرهينه ، حينئذ أحضر مسدسه وقال لك : «اقتليني» . لكنك لم تفعلي . وبعد القرون جاءت العصي لريتشارد دوفو . ثم أضاف الكولونيل إلى ذلك أنْ منعه من مقابلتك . وهذا أمر طبيعي ، لأن صهراً قاتلاً سيُلحق به الإهانة مثله مثل تشولو من كاستيبيا ، وهو جندي طيران كذلك . يا للغيور المسكين! حسن ، هذه هي القصة كاملة . هل أخطأتُ في شيء يا آنسة ؟

ضحكتْ :

- ها ، ها . أخطأتَ في كل شيء .

فوافق الملازم وهو ينفث الدخان :

- لقد أخطأتُ متعمداً . صححي لي إذن .

هل ضحكت هي ؟ نعم ، ضحكت ضحكة قصيرة ، وساخرة بضراوة . إنها جدية الآن ثانية ، تجلس متيبسة تماماً على حافة المقعد ، وركبتاها متلاصقتان . لقد كانت ذراعاها نحيلتين لدرجة يمكن لليتوما معها أن يحيط بهما بإصبعين من أصابع إحدى يديه . وكانت في شبه الظلام هذا ، بجسدها السنبلي النحيل ، تبدو لمن يراها وكأنها صبي . ومع ذلك فهي امرأة ، وقد عاشرتْ رجلاً . حاول أن يتخيل عريها ، وأن يتصورها تمارس الحب مع بالومينو موليرو ، مضطجعة على سرير في أموتابي ، أو ربما على حصيرة ، أو على الرمل ، تلف ذراعيها النحيلين حول عنق بالومينو ، وتفتح فمها ، ورجليها ، متأوهة . ولكن لا ، مستحيل . إنه عاجز عن رؤيتها . وفي الصمت اللانهائي ، أصبح أزيز الحشرات يبعث على الصمم .

وأضافت الفتاة بسرعة :

- من أحضر المسدس وطلب مني أن أقتله هو أبي . ماذا سيفعلون به ؟

فتلعثم الملازم سيلفا متعجلاً ، وكأنه قد وقع في ورطة :

- لا شيء . لا أحد سيفعل شيئاً لأبيك .

هتفت :

- تعني أنه لا توجد عدالة . لأنه لا بد من زجه في السجن ، أو قتله . ولكن لا أحد يتجرأ . طبعاً ، ومن سيتجرأ .

تيبس ليتوما . وكان يشعر بأن رئيسه متوتر أيضاً وجزع ، وكأنه يستمع إلى شخير باطن الأرض الذي ينذر بالزلزال .

وقالت الفتاة مستبدلة نبرة صوتها من جديد ، لتتكلم الآن بلا دراماتيكية ، وكأنها تثرثر مع أصدقاء :

- أريد أن أشرب شيئاً ساخناً ، حتى ولو كانت هذه القهوة . لقد أصبت ببرد أو لست أدري بماذا .

ذهل الملازم سيلفا . وكرر مرتين وهو يؤكد بحركة نشيطة من رأسه لا لزوم لها :

- إن الطقس بارد . الطقس بارد ، الطقس .

تأخر هنيهة في الوقوف على قدميه ، وحين نهض واتجه إلى البريموس ، انتبه ليتوما إلى تثاقله وبطئه . كان يتحرك كمخمور . لقد تشوش فعلاً الآن ، وليس من قبل . كما كان هو نفسه مذهولاً كذلك لما سمعه للتو ، وكان يجهد نفسه في التفكير بالأمر نفسه . أتعني أنها ، بعد كل شيء ، ورغم قولها أن الحب مقرف ، قد أحبت بالومينو موليرو ؟ لقد بعث ذلك فيه البرداء أيضاً . لكم هو جيد تناول فنجان

قهوة ساخن كالذي يعدّه رئيسه للفتاة . وعلى مخروط ضوء القنديل الضارب للحمرة ، كان ليتوما يرى تثاقل يدي الملازم وهما تسكبان الماء ، وتلقيان فيه بملاعق البن والسكر . وكما لو أنه غير واثق من استجابة أصابعه له ، تقدم نحو الفتاة ممسكاً الفنجان بين راحتيه ، دون إثارة أي ضجة ، وقدمه لها . فرفعته أليسيا ميندرياو إلى فمها في الحال وتناولت منه رشفة وهي ترفع رأسها . رأى ليتوما عينيها ، في الضوء الخافت المتذبذب . كانتا جافتين . سوداوين ، قاسيتين وراشدتين في وجه الطفلة الرقيق هذا .

– تعنين . . . – دمدم الملازم ببطء لم يكد ليتوما يسمعه . وكان قد عاد للجلوس على زاوية طاولته وإحدى ساقيه مستندة إلى الأرض بينما الثانية تنوس معلقة . توقف طويلاً ثم أضاف برهبة : – تعنين أن هذا الذي تكرهين ، هذا الذي تتمنين له أسوأ المصائب ، ليس الملازم دوفو وإنما . . .

لم يتجرأ على إنهاء عبارته . ورأى ليتوما أن الفتاة تبدي موافقتها دون أي تردد ، وسمعها تهتف وقد هاج صوتها بنوبة مفاجئة من نوبات الغضب التي تعتريها :

– إنه يركع مثل كلب ويقبل قدمي . يقول لي إن الحب لا يعرف حدوداً ، وإن العالم لا يفهم . ويقول إن الدم ينادي الدم ، وإن الحب هو الحب ، وإنه سيل يجرف كل شيء . وحين يقول هذه الأشياء ، حين يفعل ذلك ، حين يبكي ويطلب مني الصفح ، أكرهه . أتمنى لو تنزل به شر المصائب .

أسكتها صوت مذياع انطلق بأعلى قوته . كان صوت المذيع متعجلاً وجارحاً ومتداخلاً ، ولم يفهم ليتوما كلمة واحدة مما يقوله . ثم حل محله الإيقاع الراقص الدارج «البوتي» ، الذي كان يدحر رقصة هواراتشا في أفضليات أهالي تالارا .

«انظر هذه الفراخ عند الناصية . . .

فهي لا تريد مجرد الالتفات نحوي . . . »

أحس الحارس بنوبة غضب ضد المغني النائي ، وضد من أشعل المذياع ، وضد « البوني » وضد نفسه بالذات . وفكر : « لهذا تقول إنه شيء مقرف . لهذا تفرق بين الحب والوداد » . ساد صمت طويل ، هيمنت فيه الموسيقا . كانت أليسيا ميندرياو تبدو هادئة من جديد ، ناسية غضبها الذي كانت فيه منذ هنيهة . وكان رأسها يتابع ببطء إيقاع « البوتي » وينظر إلى الملازم كمن ينتظر شيئاً .

وسمع رئيسه يقول ببطء شديد :

- الآن بالضبط عرفتُ شيئاً .

نهضت الفتاة واقفة :

- سأنصرف . لقد تأخر الوقت .

فأضاف الملازم :

- عرفتُ الآن أنكِ أنتِ التي تركتِ لنا الرسالة المغفلة ، هنا على الباب . ونصحتنا فيها بالذهاب إلى أموتابي والاستفسار من دونيا لوبي عما حدث لبالومينو موليرو .

- لا بد أنه يبحث عني في كل مكان - قالت الصبية ، وكأنها لم تسمع الملازم . واكتشف ليتوما في تورية صوتها تلك النبرة الخبيثة الساخرة التي كانت ألطف ما فيها ، أو أقل ما فيها جفاء . فحين تتكلم هكذا تبدو على حقيقتها : صبية صغيرة ، وليس كما كانت منذ لحظة ، امرأة راشدة ورهيبة لها وجه وجسد طفلة :- سيكون قد بعث إلى السائق ، وإلى الطيارين ، وإلى بيوت القاعدة ، وإلى بيوت الأمريكيين ، وإلى النادي والسينما . إنه يرتعب في كل مرة أتأخر فيها . يظن بأنني سأهرب ثانية ، ها ها .

- يعني أنك كنتِ أنت . حسن ، ومع أن هذا جاء متأخراً قليلاً ،

فشكراً جزيلاً يا آنسة ميندرياو . فلولا تلك المساعدة الصغيرة ، لكنا مازلنا نتخبط .

وتابعت الفتاة :

– المكان الوحيد الذي لن يخطر له أن أكون فيه هو المفوضية . ها ها .

هل ضحكتْ ؟ أجل ، ضحكتْ . بلا سخرية هذه المرة وبلا إساءة . ضحكة سريعة ، ماكرة ، كحركة فراشة . إنها مخبولة طبعاً ، وماذا ستكون سوى ذلك . لكن الشك كان يعذب ليتوما ويجعله يفكر بجواب معاكس . نعم مخبولة ؛ لا ، ليست كذلك ، إنها تتصنع .

همس الملازم :

– طبعاً ، طبعاً – ثم سعل ليجلو حنجرته وألقى عقب السيجارة على الأرض وداسه بقدمه : – إننا هنا لحماية الناس ، وحمايتك أنتِ أكثر من سواك بالطبع ، هذا إن كنتِ تطلبين ذلك .

فردت الفتاة :

– لستُ بحاجة لحماية من أحد . أبي يحميني وهو يكفي ويزيد .

مدت إلى الملازم بقوة شديدة الفنجان الصفيحي الذي كانت قد تناولت منه القهوة ، فانتثرت بضع قطرات من القهوة المتبقية ولوثت قميص الضابط . فسارع هذا لالتقاط الفنجان . وسألها :

– أتريدين أن نرافقك حتى القاعدة ؟

قالت :

– لا ، لا أريد .

رآها ليتوما تخرج بسرعة إلى الشارع . وارتسم ظلها في الضوء المبهم المنتشر في الخارج بينما هي تركب الدراجة . رآها تنطلق ،

محركة البدالة ، وسمع ضربة جرس ، ورآها تختفي مثيرة صريراً في الشارع الصغير المتعرج وغير المرصوف .

بقي الضابط والحارس في مكانيهما صامتين . كانت الموسيقا قد توقفت الآن . وسُمع صوت المذيع المرعب يهدر ثانية ، مثل مدفع رشاش .

همهم ليتوما :

– لو لم يشعلوا هذا المذياع العاهر ، لواصلت البنية الكلام . والله أعلم أية أشياء كانت ستقول .

فقاطعه الملازم وهو ينهض . ورآه يضع القبعة :

– إذا لم نسرع ، فستتركنا بدينتي بلا طعام . هيا بنا بسرعة يا ليتوما لنملأ البطون . فهذه الأمور تفتح شهيتي . وأنت ، ألست كذلك ؟

لقد نطق بحماقة ، لأن المطعم يبقى مفتوحاً حتى منتصف الليل بينما الساعة الآن لا تكاد تكون الثامنة . لكن ليتوما أدرك أن رئيسه قال هذا لمجرد قول شيء وحسب ، وأنه أطلق مداعبة كي لا يبقى صامتاً ، إذ لا بد أنه يشعر بالاستهجان والاضطراب مثله . التقط زجاجة الباستيوريني التي تركتها أليسيا ميندرياو على الأرض وألقى بها في كيس الزجاجات الفارغة التي يأتي مشترو الزجاجات والملابس القديمة من وراو سالييناس لشرائها في نهاية كل أسبوع . خرجا ، وأغلقا باب الموقع . وتساءل الملازم من بين أسنانه إلى أين أمر حارس الخدمة بالانتقال ، وأنه سيعاقب راميرو ماتيلو الآن بإبقائه في الخدمة يومي السبت والأحد . كان القمر بدراً ، وضوء السماء الزرقاء ينير الشارع بوضوح . سارا صامتين . وكانا يردان بحركان من أيديهما ورأسيهما على تحيات المساء التي توجهها إليهما العائلات المتجمعة أمام أبواب البيوت . ومن بعيد ، كان يُسمع مكبر الصوت في السينما ، وكانت

تنطلق منه أصوات مكسيكية ، وبكاء امرأة ، وكخلفية موسيقية ، كان يُسمع هدير البحر .

- لقد أصبحت نصف أبله بعد ما سمعته . أليس كذلك يا ليتوما ؟

ووافق الحارس :

- أجل ، أصبحت نصف أبله .

- قلت لك إنك ستتعلم في هذا العمل كل أمر يا ليتوما .

- ها هي النبوءة تتحول إلى حقيقة إذاً ياسيدي الملازم .

كان في المطعم ستة أشخاص يتناولون طعامهم ، وكانوا جميعهم معروفين . تبادلا التحية والسلام معهم ، لكن الملازم وليتوما جلسا إلى طاولة قصية . أحضرت لهما دونيا أدريانا حساء بقول وسمك ، وبدل أن تضع الطبقين أمامهما بدت وكأنها تلقي بهما على الطاولة ، دون أن ترد على تحية المساء التي طرحاها . كان وجهها ساخطاً . وحين سألها الملازم سيلفا إن كانت مريضة ، ولماذا هذا المزاج المعكر ، نبحتْ قائلة :

- أيمكنني أن أعرف ما الذي كنت تفعله على صخرة السرطانات هذا المساء يا شقفة متذاكي ؟

فرد الملازم سيلفا دون أن يطرف له جفن :

- لقد سري إليّ أن مهربين سيقومون بالإنزال .

- ستدفع يوماً ثمن ظرافاتك هذه كلها ، وأنا أحذرك .

ابتسم لها الملازم وهو يزم شفتيه ببذاءة مرسلاً لها قبلة :

- شكراً لهذا التحذير يا ميمتي اللذيذة .

الفصل السابع

قال الملازم سيلفا :

– لقد تصلبت أصابعي ، يا للكارثة . حين كنت طالباً في مدرسة الضباط ، كنت قادراً على عزف أي لحن بمجرد سماعه . أما الآن ، فلست قادراً حتى على «الراسبا» ، يا للعنة!

وفعلاً ، كان يحاول عزف عدة ألحان فتخرج نشازاً دوماً . وكانت الأوتار تصر أحياناً مثل قطط هائجة تتصارع . لم يكن ليتوما يولي رئيسه إلا نصف سمعه ، لأنه كان يركز ذهنه على فكرة ثابتة . أية لعنة ستقع بعد تقرير كهذا . كانا على شاطئ الصيادين ، بين المرفأين ، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، إذ أن صفارة مصفاة البترول قد انطلقت منذ قليل معلنة عن موعد تبديل وردية العمال . وكانت زوارق كثيرة قد أبحرت قبل وقت قصير ، وبينها الليون دي تالارا . ولقد دخن ليتوما والملازم سيلفا سيجارة مع الشيخ ماتياس كيريكوتييو ، بينما كان مساعدا هذا الأخير يسحبان الزورق إلى البحر . وكان زوج دونيا أدريانا يريد أن يعرف كذلك إن كان صحيحاً ما يقال في تالارا كلها .

– وما الذي يقال في تالارا كلها يا دون ماتياس ؟

– إنكما اكتشفتما قتلة بالومينو موليرو .

ورد عليه الملازم سيلفا بالإجابة التي كان يقدمها لكل من يوجه إليه هذا السؤال . (فمنذ الصباح – من يدري كيف شاع الخبر – والناس يستوقفونهما في الشارع ليسألوهما السؤال نفسه) .

– لا يمكن قول أي شيء بعد . قريباً سيُعرف الأمر يا دون ماتياس . وأستطيع أن أخبرك أنت مسبقاً بأن الكشف سيكون قريباً جداً .

– عسى أن يكون ذلك صحيحاً أيها الملازم ، وأن تأخذ العدالة مجراها ولو مرة واحدة ، وألا يكسب الذين يكسبون دائماً .

– ومن هم هؤلاء يا دون ماتياس ؟

– ومن سيكونون . أنت تعرفهم جيداً مثلما أعرفهم . الأسماك الكبيرة .

ومضى مترنحاً مثل زورق في مياه متحركة ، وتسلق مركبه برشاقة . لم يكن يبدو عليه أنه رجل يسعل ويبصق دماً ؛ بل بدا متماسكاً ومتين البنية بالنسبة لسنه . ربما كانت قصة مرضه هذه هي من أوهام دونيا أدريانا . أيعرف دون ماتياس أن الملازم سيلفا يسعى للإيقاع بزوجته ؟ لم يبدِ ذلك قط . وقد لاحظ ليتوما أن الصياد يعامل رئيسه بلطف دوماً . ربما يفقد الإنسان الغيرة مع مرور السنوات .

فكر الملازم قائلاً وهو يضع الجيتار على ساقيه :

– الأسماك الكبيرة . أتظن أنت أن الأسماك الكبيرة هي التي تركت لنا هذا الجيتار على باب الموقع كهدية ؟

فأجاب الحارس :

– لا يا سيدي . إنها ابنة الكولونيل ميندرياو . أنت سمعتها حين قالت لنا إن جيتار النحيل عندها .

ورد الملازم :

– إذا كنت أنت تقول . . . ولكن هذا لا يقنعني . فأنا لم أر أية رسالة أو بطاقة أو أي شيء يثبت لي أنها هي التي حملت الجيتار إلى الموقع . وليست لدي أدلة كذلك على أن هذا الجيتار هو جيتار بالومينو موليرو .

– أتسخر مني يا سيدي الملازم ؟

– لا يا ليتوما . إنني أحاول تسليتك قليلاً . لماذا أنت خائف هكذا ؟ لا بد للحارس الأهلي من امتلاك خصيتي ثور يا رجل .

– وأنت مرتعب كذلك يا سيدي الملازم . لا تنكر هذا .

ضحك الضابط دون شهية :

– طبعاً أنا مرتعب . لكنني أداري ، ولا يظهر الخوف عليّ . أما أنت فوجهك يثير الأسى . ويبدو لي أنه كلما تجشأتْ بعوضة تشخ أنت في بنطالك .

بقيا صامتين لبعض الوقت ، يستمعان إلى قرقعة البحر . لم تكن هناك أمواج ، وإنما تموجات عالية جداً . وكان القمر يضيء الليل بطريقة تبدو معها واضحة للعيان تماماً بيوت الأمريكيين وكبار موظفي شركة الأنترناشيونال ، هناك عند قمة الرابية ، إلى جانب الفنار الذي يومض ، وعند سفح التل الذي يغلق الخليج . إن الجميع يتحدثون عن روعة قمر بايتا ، ولكن الصحيح أن ليتوما لم ير في حياته قمراً أكثر استدارة وإنارة من هذا الذي هنا . من الخير للناس أن يتحدثوا عن قمر تالارا ، وتخيل النحيل في ليلة كهذه الليلة ، يغني على هذا الشاطئ بالذات ، وهو محاط بطيارين منفعلين :

أيها القمر القمر

أيها الجلجل

تعال وقل لصينيتي

بربكِ أحبيني . . .

كان ليتوما والملازم قد ذهبا إلى السينما ، وشاهدا فيلماً أرجنتينياً للويس ساندريني ، جعل الناس يضحكون كثيراً ، أما هما فلم يضحكا . بعد ذلك تبادلا الحديث مع الأب دومينغو ، أمام باب الكنيسة . وكان الكاهن يريدهما أن يبعثا إليه بحارس أهلي لإخافة الدنجوانات الذين يدخلون الكنيسة لمضايقة بنات تالارا اللواتي يغنين في الكورال في أيام التدريب . فقد سحبت أمهاتٌ كثيرات بناتهن من الكورال بسبب أولئك الباردين . ووعده الملازم بعمل ذلك ، إذا ما وجد لديه حارساً بلا مهمة . وعند عودتهما إلى الموقع ، وجدا الجيتار الذي يضعه الملازم الآن على ركبتيه . كان موضوعاً أمام الباب . وكان يمكن لأي عابر سبيل أن يحمله لو أنهما ذهبا إلى المطعم أولاً لتناول الطعام بدل الرجوع إلى المركز . ولم يتوان ليتوما ولو ثانية واحدة عن تفسير معنى وجود الجيتار هناك :

– تريدنا أن نعيده إلى أم النحيل . ربما لانت الفتاة لما رويتهُ لها عن دونيا أسونتا ، ولهذا أحضرت الجيتار لنا .

– الأمر كذلك إن كنت تقوله أنت يا ليتوما . أما أنا ، فهذا لا يقنعني .

لماذا يصر الملازم على المزاح ؟ فليتوما يعرف جيداً أن رئيسه لا يجد رغبة في الضحك ، وأنه قلق ومرتاب مثله تماماً مذ بعث ذلك التقرير . والدليل على ذلك وجودهما في هذا المكان ، في مثل هذا الوقت . فبعد تناولهما الطعام ، اقترح عليه الملازم أن يريضا أرجلهما . وقد جاءا دون أن يتكلما ، وكل منهما غارق في مشاغله ، حتى وصلا إلى شاطئ الصيادين . رأيا رجال المراكب وهم يعدون الشباك وأدوات الصيد وينطلقون في البحر . ورأيا ، في عتمة المياه ، أنوار مصابيح من يلقون الشباك بعيداً . وحين بقيا وحيدين ، خطر للملازم أن يداعب أوتار جيتار النحيل . ربما أنه لم يستطع عزف أي لحن لمجرد كونه

مرتعباً . ولقد كان كذلك بالطبع ، رغم أنه يحاول إخفاء خوفه برواية الطرائف . وربما للمرة الأولى منذ بدأ الخدمة تحت أوامره ، لم يسمعه الحارس هذه الليلة يذكر بدينة المطعم ولو مرة واحدة . وكان سيسأل رئيسه إن كان يسمح له بحمل الجيتار إلى دونيا أسونتا عند ذهابه إلى بيورا في المرة القادمة «دعني أمنح هذا العزاء لتلك المرأة يا سيدي الملازم» - حين انتبه إلى أنهما ليسا وحيدين .

- طابت ليلتكما - قال الشبح .

كان قد ظهر فجأة ، وكأنه خرج من البحر أو من الهواء . حملق ليتوما دون أن يفلح بقول شيء ، مكتفياً بفتح عينيه على اتساعهما . لم يكن يحلم : إنه الكولونيل ميندرياو .

- طابت ليلتك يا سيدي الكولونيل - قال الملازم سيلفا وهو ينهض من الحفرة التي كان يجلس فيها . تدحرج الجيتار على الرمل ورأى ليتوما أن رئيسه يقوم بحركة من يده اليمنى ولم ينهها : وكأنه يمسك المسدس ، أو يفك على الأقل زر القراب الذي يحمله دائماً معلقاً بحزامه ، على إليته اليمنى .

قال شبح الكولونيل :

- اجلس . كنت أبحث عنك وراودني إحساس بأن عازف الجيتار الليلي هو أنت .

- كنتُ أرى إن كنت لاأزال أذكر كيف أعزف . ولكنني نسيت العزف في الحقيقة لانعدام الممارسة .

فوافق الشبح وهمس :

- أنت كرجل شرطة أفضل منك كعازف جيتار .

ورد الملازم سيلفا :

- شكراً يا سيدي الكولونيل .

فكر الحارس : « إنه آتٍ لقتلنا » . تقدم الكولونيل ميندرياو خطوة نحوهما واحتل وجهه مكاناً أكثر إضاءة بنور القمر . ميّز ليتوما جبهته العريضة ، وهاتين الفجوتين العميقتين في الصدغين والشارب المنتظم بالميليمتر . أكان شاحباً إلى هذا الحد في المرتين اللتين رأياه فيهما في مكتبه ؟ ربما أن القمر هو الذي أظهره شاحباً هكذا . لم تكن ملامحه ملامح تهديد أو عداء . وإنما هي أقرب إلى اللامبالاة . وكانت لنبرة صوته تلك الغطرسة التي كانت عليها أثناء المقابلة في القاعدة . ماذا سيحدث ؟ أحس ليتوما بفجوة في معدته ، وفكر : « هذا ما كنا ننتظره » .

أضاف الكولونيل :

– بإمكان شرطي جيد فقط الكشف بمثل هذه السرعة عن مقتل ذلك الهارب من الجندية . لم يكد يمر أسبوعان ، أليس كذلك أيها الملازم ؟

– لنكنْ دقيقين ، هي تسعة عشر يوماً يا سيدي الكولونيل .

لم يرفع ليتوما عينيه لحظة واحدة عن يدي الكولونيل ميندرياو ، لكن ضوء القمر لم يكن يصل إليهما . هل مسدسه جاهز للإطلاق ؟ أيهدّد الملازم لإجباره على نفي ما كتبه في التقرير ؟ أيطلق عليه فجأة طلقتين أو ثلاث طلقات ؟ وهل سيطلق النار عليه هو أيضاً ؟ ربما جاء لإلقاء القبض عليهما . ربما هنالك دورية من شرطة الطيران تطوقهما بينما الكولونيل يشاغلهما بهذا الحوار المخادع . أصاخ سمعه ، ونظر فيما حوله . لا أحد يقترب ولا يُسمع أي شيء ، باستثناء صوت البحر . ومقابله كان رصيف المرفأ القديم يرتفع وينخفض مع حركة الماء . وكانت النوارس تنام بين حدائده المغطاة بالطحالب ، والمرصعة بقواقع لا حصر لها ، وبنجوم بحر وسرطانات . لقد كانت المهمة الأولى التي أوكلها إليه رئيسه ، بعد قدومه إلى تالارا ، هي إخافة الصبية الذين

يتسلقون منصة المرفأ عن طريق هذه الحدائد ، ليتوازنوا عليه كما في أرجوحة الصعود والهبوط .

كرر الكولونيل كرجع متأخر :

– تسعة عشر يوماً .

كان يتكلم بلا سخرية ، وبلا غضب ، وببرودة جليدية ، وكأنه لا يوجد في كل هذا ما يستحق الاهتمام ولا ما يمكن له أن يؤثر عليه أدنى تأثير ، وفي أعماق صوته كان ثمة شيء – تبدل ، توقف ، طريقة في تشديد بعض الحروف ، ذكّرت ليتوما بالفتاة . وفكر : «المنيعون محقون ، فأنا لم أولد لخوض المخاوف» .

وتابع الكولونيل :

– ليس سيئاً على أي حال ، فهذه الجرائم لا تُحل أحياناً في سنة . وقد تبقى مجهولة إلى الأبد .

لم يُجب الملازم سيلفا . وخيم صمت طويل . لم يأت أي من الرجال الثلاثة خلاله بحركة . كان رصيف المرفأ يهتز كثيراً : هل هناك صبي يتأرجح ؟ كان ليتوما يسمع تنفس الكولونيل ، وتنفس رئيسه وتنفسه ، وفكر : «لم أشعر في حياتي بمثل هذا الخوف» .

– هل تأمل بترقية كمكافأة لك ؟ – سمع الكولونيل ميندرياو يقول . وخطر له بأن الكولونيل يشعر بالبرد دون شك وهو بهذا القميص ذي الأكمام القصيرة الذي يرتديه الطيارون كلباس رسمي يومي . كان رجلاً قصيراً ، ليتوما أطول منه بنصف رأس على الأقل . لم يكن يوجد في أيامه إذاً حد أدنى لطول القامة من أجل الدخول إلى المعاهد العسكرية .

– سأتأهل للترقية إلى رتبة نقيب اعتباراً من شهر تموز من السنة القادمة ، وليس قبل ذلك يا سيدي الكولونيل . – سمع صوت رئيسه

يقول . الآن سيرفع الكولونيل يده ويطلق الرصاصة : سينشق رأس الملازم مثل ثمرة بابابة . لكن الكولونيل رفع في هذه اللحظة يده اليمنى ، ليمر بها على فمه ، ورأى الحارس أنه لا يحمل فيها سلاحاً . لماذا جاء إذاً ؟ لماذا ؟ وتابع الملازم كلامه : - ورداً على سؤالك ؛ أقول لا ، لا أظن أنهم سيرقّونني لأني حللت القضية . وأقول بصراحة ، إنني أظن أن هذا قد يجلب لي أوجاع رأس كثيرة يا سيدي الكولونيل .

- وهل أنت واثق من أنك قد كشفت القضية نهائياً ؟

لم يكن الشبح يتحرك ، وخيل لليتوما بأن الطيار يتكلم دون أن يفتح شفتيه ، بمعدته ، كمن يتكلمون من بطونهم .

دمدم الملازم :

- حسن ، لا يوجد شيء مؤكد سوى الموت - ولم يلحظ في كلمات رئيسه أدنى تردد . وفكر : «إنه يسايره» ، كما لو كان هو أيضاً غير مرتبط شخصياً بهذه المحادثة ، وكما لو أنها تدور حول أناس آخرين . وجرد الملازم حنجرته بسعلة خفيفة قبل أن يواصل :- لكن ، وبالرغم من أن بعض التفاصيل لاتزال مبهمة ، إلا أنني أظن أن الأسئلة الثلاثة الحاسمة قد حُلّت : من قتله . كيف قتله . لماذا قتله .

نبح كلب ، وراح نباحه البائس والمحموم يتحول إلى عواء كئيب . لقد انحرف الكولونيل ، أو أن القمر قد تقدم : إذ أصبح وجهه في الظلام ثانية . وكان الرصيف العائم يرتفع وينخفض . ومخروط الضوء المنبعث من الفنار يكنس المياه ، مانحاً إياها لوناً ذهبياً .

وسمعه ليتوما يقول :

- لقد قرأت تقريرك الذي رفعته إلى المسؤولين . قيادة الحرس الأهلي أعلمتْ رؤسائي به . وهؤلاء كانوا من اللياقة بحيث أنهم صوروا نسخة منه وأرسلوها إليّ لأطلع على مضمونه .

لم يضطرب ، ولم يتكلم بسرعة أكبر ولا بانفعال أشد من السابق . ورأى ليتوما أن نسمة خفيفة قد بعثرت الشعر الخفيف الذي على رأس الشبح الغارق في الظل ؛ فمسده الكولونيل فوراً . بقي الحارس متوتراً ومرتعباً ، لكنه استعاد الآن في مخيلته الصورتين الدخيلتين : النحيل وأليسيا ميندرياو . كانت الصبية مشلولة بهول المفاجأة وهي ترى كيف يجبرونه على الصعود بالقوة إلى شاحنة صغيرة زرقاء . ثم ينطلق المحرك صاخباً . وفي الطريق إلى الأرض الصخرية ، يطفئ الطيارون سجائرهم في ذراعي وعنق ووجه بالومينو موليرو متملقين بذلك قائدهم . وحين يسمعونه يصرخ ، يطلقون ضحكاتهم وهم يتبادلون الوخزات بمرافقهم . ويلح الملازم دوفو :« فليتألم ، ليتألم » . ثم يقبل أصابعه فجأة ويقول له : « ستندم على ولادتك ، أقسم لك » . رأى الملازم سيلفا ينهض عن حافة الحفرة حيث كان يجلس ، ويأخذ بتأمل البحر ويداه في جيوبه . ثم سأل دون أن يلتفت :

- أيعني هذا أنهم سيدفنون القضية يا سيدي الكولونيل ؟

ردّ الكولونيل ميندرياو بجفاء ، وكأن السؤال تافه وسخيف جداً ويضيع له وقتاً هو بحاجة إليه :

- لست أدري .

لكنه ما لبث أن أبدى ارتيابه للتو .

- لا أظن ، إذ لا يمكن عمل ذلك وقد وصلت القضية إلى المستوى الذي وصلت إليه . هذا صعب جداً ، وسيكون . . . لست أدري . هذا مرتبط بالسلطات العليا ، وليس بي .

وفكر ليتوما : « مرتبط بالأسماك الكبيرة » . لماذا يتكلم الكولونيل وكأنه غير مهتم بشيء من هذا ؟ لماذا جاء إذاً ؟

- أريد أن أعرف شيئاً واحداً أيها الملازم - ثم توقف صامتاً ، وبدا لليتوما أنه رماه بنظرة سريعة ، وكأنه يراه الآن فقط ويقرر أنه بإمكانه

مواصلة الحديث بحضور هذا السيد لا أحد : – هل جاءت ابنتي لتقول لك إنني كنت أستعملها ؟ هل قالت لك ذلك ؟

ورأى ليتوما أن رئيسه يلتفت إلى الكولونيل دون أن يرفع يديه من جيوبه . ويهمس بإشباع :

– لقد أفهمتنا ذلك . . . لم تقله بوضوح ، ليس بهذه الكلمات ذاتها . ولكنها أفهمتنا أنك . . . أنها لم تكن بالنسبة إليك ابنة ، وإنما امرأة يا سيدي الكولونيل .

ارتبك ارتباكاً رهيباً وذابت الكلمات في فمه . لم يره ليتوما أبداً بمثل هذا الاضطراب . أحس بالأسى عليه وعلى الكولونيل ميندرياو وعلى النحيل وعلى الفتاة . كانت لديه رغبة في البكاء أسى على العالم بأسره . اللعنة . وانتبه إلى أنه يرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه . أجل ، لقد كشفه خوسيفينو جيداً ، فهو مجرد عاطفي خرائي ، ولن يتبدل .

قال الكولونيل ميندرياو ، لا ليسأل ، وإنما ليثبت شيئاً مؤكداً :

– هل قالت لك أيضاً أنني أقبّل قدميها ؟ وأنني بعد استعمالها أجثو على الأرض متوسلاً إليها الصفح ؟

تلعثم الملازم بعبارة لم يفهمها ليتوما ، ويمكن أن تكون «أظن ذلك» أو «يبدو لي أنها قالت ذلك» . كانت لديه رغبة في الانطلاق راكضاً . آه . فيأتِ صياد ، أو ليحدث أي شيء يضع حداً لهذا المشهد .

واصل الكولونيل بلا كلل . وكان قد خفض صوته الذي صار يبدو متعباً ونائياً :

– وإنني كنت أقدم لها المسدس ، وقد أفقدني الندم صوابي ، لتقتلني ؟

لم يجب الملازم هذه المرة . وساد صمت طويل . كان شبح الطيار

متيبساً ، وكان رصيف المرفأ القديم يعلو ويهبط متأرجحاً بتموجات البحر . وكان همس البحر أكثر خفوتاً ، وكأن المد البحري قد أخذ بالتراجع . ونعق طائر غير مرئيّ على مقربة منهم .

سأل الملازم :

– أتشعر بالمرض ؟

فقال الكولونيل بصرامة ، وكأنه يتوجه بكلامه إلى أحد الآن :

– الكلمة بالإنكليزية هي « Delusions » . أما بالإسبانية فلا وجود لما يرادفها . لأن delusions تعني ، في الوقت ذاته : وهم . تخيل ، وخداع أو غش . فالوهم هو غش . تخيل شرير مخادع . – تنهد عميقاً ، كما لو أنه بقي دون هواء ، ومر بيده على فمه – لقد بعتُ بيت والديّ لكي آخذ أليسيا إلى نيويورك . وأنفقت ما ادخرته طوال حياتي . بل ورهنت تعويض خدمتي . ففي الولايات المتحدة يشفون جميع أمراض العالم ، ويقومون بجميع المعجزات العلمية . أليس هذا ما يقال ؟ حسن ، إذا كان الأمر كذلك فكل تضحية مبررة لإنقاذ هذه الطفلة ، ولإنقاذي أنا أيضاً . لم يشفوها . لكنهم اكتشفوا مرضها على الأقل . إنه delusions لا يمكن علاجه أبداً ولا شفاء منه . بل إنه يتفاقم ويتزايد مع مرور الوقت كالسرطان ، ما دام السبب الذي يستثيرها موجوداً . لقد أوضحوا لي ذلك بفظاظة الأمريكيين : مشكلتها تكمن فيك أنت . أنت السبب . فهي تعتبرك مسؤولاً عن موت أمها التي لم تعرفها . كل ما تختلقه ، وكل هذه الأشياء الرهيبة التي تدبرها ضدك . وهذا الذي ترويه لراهبات القلب المقدس في ليما ، والذي كانت ترويه لراهبات اللورديس في بيورا ، ولخالاتها وصديقاتها ، من أنك تسيء إليها ، وأنك بخيل ، وأنك تعذبها ، وأنك تقيدها إلى السرير ، وأنك تجلدها . إنما تفعله انتقاماً لأمها . لكنك لم تر شيئاً بعد . هَيّئ نفسك لما هو أسوأ بكثير . لأنها فيما بعد ، وعندما تكبر ، ستتهمك بأنك حاولت قتلها ، واغتصابها ، وبأنك قد اغتصبتها . ستتهمك بأشد الأمور هولاً .

ولن تنتبه إلى أنها إنما تختلق وتكذب ؛ لأنها تصدق أكاذيبها وتعيشها وكأنها الحقيقة دون زيادة أو نقصان . « Delusions » ، هكذا يدعى الداء بالإنكليزية . ولا وجود في الإسبانية لكلمة توضح ذلك تماماً .

ساد صمت طويل . وبالكاد كان يُسمع صوت البحر ، يهمس خافتاً جداً . وفكر ليتوما : « كلام كثير أسمعه لأول مرة » .

وسمع الملازم يقول بنبرة حاسمة وتوقيرية :

– هكذا هو الأمر بكل تأكيد . ولكن . . . أوهام ابنتك أو جنونها لا يفسر كل شيء ، إن سمحت لي . – وتوقف في فاصلة طويلة ، منتظراً تعليقاً من الكولونيل أو باحثاً عن الكلمات المناسبة :– التنكيل بالشاب مثلاً .

أغمض ليتوما عينيه . إنه يراه هناك : يحترق تحت الشمس اللاهبة ، في الصحراء الحصوية ، وآثار التعذيب تغطيه من شعره حتى باطن قدميه ، محاطاً بمعز غير مبالية وكريهة الرائحة ، مشنوقاً ومحروقاً بالسجائر ، وعصا مدسوسة في مؤخرته . يا للنحيل المسكين .

قال الكولونيل :

– هذه قضية أخرى .– لكنه صحح ما قاله فوراً :– أجل ، لا يفسره . هذا صحيح .

سمع الملازم سيلفا يقول :

– حضرتك وجهت إلي سؤالاً وأنا أجبت . فاسمح لي أن أوجه إليك سؤالاً أيضاً . أكانت هنالك من ضرورة للتنكيل به هكذا ؟ وأنا أسألك بكل بساطة لأني لا أفهم سبباً لذلك .

ورد الكولونيل في الحال :

– وأنا أيضاً . أو لنقل إنني أفهمه الآن . أما في البدء فلم أفهمه . لقد سكر وأسكر رجاله كذلك . فحوّل الخمر والحقد الشيطان البائس

إلى سادي . الحقد ، الحب الجريح ، الشرف المهان . هذه أشياء موجودة حتى ولو كان شرطي لا يعرفها أيها الملازم . كان يبدو لي أنه مجرد شيطان بائس فقط ، وليس سادياً . كانت أوامري إليه : طلقة في الرأس ، ودفن سري . أما المجزرة السخيفة فبالطبع لا . لم تعد لذلك أية أهمية الآن . فقد حدث ما حدث وعلى كل شخص أن يتحمل مسؤولياته . أنا معتاد دوماً على تحمل مسؤولياتي .

عاد يأخذ نفساً من جديد ويلهث . وسمع ليتوما رئيسه يقول :

– أنت لم تكن حاضراً إذاً . الملازم دوفو وحده مع جماعة من مرؤوسيه ؟

بدا لليتوما أن الكولونيل يفرقع لسانه ، كما لو كان سيبصق . لكنه لم يفعل . وقال ببرود :

– لقد منحته مكافأة العزاء تلك ليشفي بالرصاصة غليل كبريائه الجريح . وقد فاجأني . لم يكن يبدو عليه أنه قادر على كل ذلك . كما فاجأني الجنود الطيارون كذلك . إنهم زملاؤه في نهاية الأمر . ثمة قاع بهيمي في الجميع ، مثقفين وغير مثقفين ، الجميع . وأعتقد أنه أقوى في الطبقات الدنيا ، بين من هم تشولو . إنها مشاعر متضاربة معقدة ، ثم يأتي الخمر وتملق القائد ليتكفل بالباقي . لم يكن هناك مبرر لكل تلك القسوة بالطبع . ولست نادماً على شيء ، إن كان هذا ما تود معرفته . أرأيت في حياتك جندياً طياراً يختطف أو يغتصب ابنة قائد قاعدته ؟ لكنني كنت سأنجز ذلك بطريقة سريعة ونظيفة . طلقة في الرأس ، وانتهى .

فكر الحارس : «هو مريض أيضاً بمرض ابنته . بهذه الأوهام ،delusions» .

وأحس ليتوما ثانية بأن الملازم ينطق بالأسئلة التي تخطر في ذهنه هو حين سمعه يقول :

– أتقول اغتصبها يا سيدي ؟ القول بأنه اختطفها وارد . مع أن الدقة تستدعي القول بأنهما فرا معاً . فقد كانا متحابين ويريدان الزواج . جميع أهالي أموتابي يشهدون بذلك . فأي اغتصاب هذا ؟

وبدا لليتوما أنه سمع ثانية فرقعة اللسان المنذرة بالبصاق . وحين تكلم الكولونيل رجع الطاغية الصارم الذي كانه في مكتبه . وأوضح بنفور لاضطراره إلى إيضاح واضح :

– ابنة قائد قاعدة تالارا الجوية لا تعشق طياراً . ابنة الكولونيل ميندرياو لا تعشق عازف جيتار من كاستيبيا .

« لقد تعلمتْ منه » . فكر ليتوما . فمن هذا الأب الذي يفترض بأنه شديد الحقد ، تعلمت أليسيا ميندرياو عادة التمييز العرقي واحتقار من هم ليسوا بيضاً .

وسمع رئيسه يقول برقة :

– أنا لم أخترع هذا . إنها هي ، الآنسة أليسيا ، من أخبرتنا به ، دون أن نسألها يا سيدي الكولونيل . أخبرتنا بأنهما كانا متحابين ، ولو كان الكاهن موجوداً في أموتابي لتزوجا . فهل هذا اغتصاب ؟

ورفع الكولونيل ميندرياو صوته لأول مرة هذه الليلة :

– ألم أوضح لك الأمر ؟ « Delusions, delusions » تخيلات خادعة . لم تحبه ولا يمكنها أن تحبه . ألا ترى أنها فعلت ما كانت تفعله دوماً ؟ الشيء نفسه حين جاءت لتخبركما بهذا . والشيء نفسه حين كانت تذهب إلى راهبات ألورديس لتريهن جراحاً أحدثتها هي نفسها ببرود ، لتسيء إليَّ أمامهن . كانت تنتقم بتعذيبي وبجعلي أدفع ثمن موت أمها بأكثر الأمور إيلاماً لي . وكأن . . .– تنهد وشهق – وكأن ذلك الموت لم يكن بالصليب الكافي في حياتي . ألا يتسع ذهن الشرطي لفهم هذا ؟

وفكر ليتوما : « لا يا بن العاهرة . إنه لا يتسع » . لماذا تعقيد

الحياة هكذا ؟ ولماذا لا يمكن لأليسيا ميندياو أن تكون قد أحبت ذلك النحيل الذي يعزف الجيتار عزفاً شجياً ويغني بصوت عذب ورومنسي ؟ لماذا كان مستحيلاً للحب أن يقوم بين بيضاء وتشولو ؟ ولماذا يرى الكولونيل في ذلك الحب مؤامرة ماكرة ضده ؟

وسمع الكولونيل يقول بذلك الصوت المبهم الذي يقصيه عنهما وعما يقوله :

- لقد أوضحت ذلك لبالومينو موليرو أيضاً . مثلما أوضحته لك . بيّنت له ذلك بتفاصيل أكثر من التي ذكرتها لك . وبوضوح أكبر . بلا وعيد وبلا أوامر . ليس ككولونيل وطيار . وإنما كرجل لرجل . مانحاً إياه فرصة ليتصرف كرجل شهم ، وليكون غير ما هو عليه .

صمت ليمر بيده على فمه مروراً سريعاً كمذبة . ورآهما ليتوما الذي أغمض عينيه : الضابط صارماً ومهذباً ، بشاربه المستقيم وعينيه الباردتين ، والنحيل محشوراً في بدلة المجند ، الجديدة بكل تأكيد ، وذات الأزرار اللامعة ، وبشعره الحليق حديثاً بكامله تقريباً ، وهو يقف متأهباً . كان الأول واثقاً جداً ، ضئيلاً ومهيمناً ، يتحرك في مكتبه بينما هو يتكلم ، ومن خلفة تبدو مراوح طائرات ومحركاتها . أما الطيار ، فكان شاحباً جداً ، لا يتجرأ على الحركة قيد أنملة ، أو على تحريك رموشه أو فتح فمه أو التنفس .

وانتبه ليتوما إلى أن الكولونيل يقول :

- هذه الصبية ليست كما تبدو في الظاهر . هذه الصبية ، رغم أنها تتكلم وتضحك وتفعل مثلما تفعل الصبايا الأخريات ، إلا أنها ليست مثلهم . إنها هشة ، كزجاج ، كزهرة ، كمخلوق أعزل . كان بإمكاني أن أقول له : «ممنوع على جندي الطيران أن يرفع عينيه إلى ابنة كولونيل القاعدة ؛ ولا يمكن لشاب من كاستيبيا أن يتطلع لنيل أليسيا ميندرياو ، ولو في الحلم . اعرفْ هذا واعلمْ كذلك أنه يتوجب عليك ألا تدنو منها ، وألا تنظر إليها ، ولا حتى أن تحلم بها ، وإلا فإنك ستدفع

حياتك ثمناً لتهورك » ولكنني بدلاً من أن أمنعه ، أوضحت له ، رجلاً لرجل ، اعتقاداً مني بأنه يمكن لعازف جيتار من كاستيبيا أن يكون شخصاً عاقلاً ، وأن تكون له بصيرة إنسان محترم . قال لي إنه قد فهم الأمر ، وإنه لا يشك بكون أليسيا كذلك ، وإنه لن يعود للنظر إليها أو التكلم معها مطلقاً . وفي تلك الليلة بالذات ، اختطفها هذا التشولو المنافق واستعملها . ظن أنه يضعني بذلك بين الجدار والسيف . يا للمسكين . انتهى الأمر ، لقد اغتصبتها ، وعليك أن تذعن وتوافق على زواجنا . لا أيها الفتى ، يمكن لابنتي ، لهذه البنية المريضة ، أن تمارس عليّ كل أشكال الابتزاز ، وكل أنواع الفضائح ولا مفر لي سوى حمل هذا الصليب الذي فرضه الله عليّ . هي نعم ، وأنا مستعد لها . . . أما أنت ، أنت أيها البائس الحقير .

صمت ، أخذ نفساً عميقاً ، شهق . وفجأة ماءَ قطٌ من مكان ما . وسُمع عدو قوائم كثيرة . بعد ذلك ساد الصمت الممزوج بصوت البحر المتوافق ثانية . وكان رصيف الميناء قد توقف عن التأرجح . وسمع ليتوما رئيسه يوجه السؤال نفسه الذي كان ينهش لسانه هو :

– ولماذا إذن ريكاردو دوفو ؟ لماذا يمكنه هو أن يكون عشيق أليسيا ميندرياو وخطيبها ؟

فانطلق الكولونيل ، وكأنه سئم أن يكون العالم أعمى لدرجة أنه لا يرى ضوء الشمس :

– لأن ريكاردو دوفو ليس بالساق المنتوفة من كاستيبيا ، وإنما هو ضابط . رجل من عائلة محترمة . ثم إنه ضعيف الشخصية وأحمق . فمع الشيطان البائس ريكاردو دوفو أستطيع مواصلة العناية بها وحمايتها . كما أقسمت لأمها أن أفعل وهي تموت . والله وميرثيدس يعرفان أنني وفيت بوعدي ، رغم كل ما كلفني ذلك .

غاب صوته وسعل عدة مرات ، مسيطراً على هذا الضعف الذي لا سبيل إلى قهره . وفي البعيد ، كانت عدة قطط تموء وتصرخ بجنون :

أهي تتصارع أم تتعاشر ؟ اللعنة ، كل شيء في الدنيا مشوش .

قطع الكولونيل الحديث بجفاء :

- لكنني لم أجئ لشيءٍ من هذا كله ولن أواصل الحديث عن أسرتي معك . - ثم استبدل صوته ثانية بنبرة أكثر رقة : - كما إنني لا أريد تبديد المزيد من وقتك أيها الملازم .

وفكر ليتوما : «أنا لست موجوداً بالنسبة له» . هذا أفضل : إذ كان يشعر أنه في أمان أكثر حين يعلم أن الكولونيل ينساه ويلغيه . ساد صمت لانهائي بدا الطيار أثناءه وكأنه يناضل ضد الخرس ، محاولاً النطق ببعض الكلمات المتمردة والهاربة .

وقال الملازم سيلفا :

- إنك لا تبدد لي الوقت .

فنطق أخيراً بمشقة :

- أشكر لك عدم إتيانك على ذكر هذه القضية في التقرير .

وسمع الملازم يدمدم :

- هل تعني قضية ابنتك ؟ وما لَمّحتْ به إلينا عن أنك كنت تستعملها ؟

وكرر والد أليسيا ميندرياو بصوت أكثر ثقة :

- أشكر لك عدم ذكرك هذا الأمر في التقرير . - مر بيده على فمه وأضاف : - ليس من أجلي ، وإنما من أجل الصغيرة . فهذا . . . كان سيتحول إلى وليمة حافلة للصحافيين . إنني أرى عناوين الصحف . . أرى كل قيح ونتانة الصحافة تنهمر علينا .- سعل ، وشهق واجتهد ليبدو جدياً قبل أن يدمدم :- لا بد دوماً من حماية صبية دون سن الرشد من الفضائح بأي ثمن .

سمع ليتوما الملازم يقول :

- عليّ أن أنبهك إلى شيء يا سيدي الكولونيل . لم أذكر القضية لأنها كانت غامضة ، ولأنها ضئيلة الارتباط كذلك بمسألة اغتيال بالومينو موليرو . ولكن لا تتوهم . فحين تُنشر القضية ، إن كانت ستُنشر ، فكل شيء يعتمد على ما ستقوله ابنتك . سيتهمونها . وسيطاردونها ليلاً ونهاراً ليحصلوا منها على تصريحات . وكلما كانت هذه التصريحات قذرة وفضائحية ، فسيستغلونها أكثر . حضرتك تعرف . وإذا كانت كما تقول حضرتك ، مريضة بالوهم ، أقلت إنه يدعى « delusions » ؟ فمن الأفضل نقلها إلى مصحة ، أو ربما إلى خارج البلاد . ومعذرةً لأني أتدخل في أمر لا يخصني .

صمتَ لأن شبح الكولونيل قام بحركةٍ تشير إلى نفاد الصبر . وقال واضعاً حداً للمحادثة :

- بما أنني لم أكن متأكداً من أني سأجدك ، فقد تركت لك رسالة في الموقع ، دسستها من تحت الباب .

قال الملازم سيلفا :

- حسن يا سيدي الكولونيل .

ووجه الكولونيل تحية وداع حاسمة :

- ليلة سعيدة .

لكنه لم ينصرف . رآه ليتوما وهو يدور على عقبيه ويمشي بضع خطوات باتجاه الشاطئ ، ويقف هناك ، وجهه إلى البحر ، ويبقى ثابتاً مقابل السطح الفسيح الذي يلونه ضوء القمر بلون فضي متقطع . كان مخروط النور المنبعث من الفنار يذهب ويجيء ، كاشفاً لدى مروره مقابلهما ، ولمدة ثانية واحدة ، عن الشبح الضئيل المتغطرس ، المتشح بملابس خاكية ، والذي يوليهما ظهره ، منتظراً انصرافهما . نظر إلى

الملازم ، ونظر هذا إليه حائراً . وأخيراً ، أشار إليهما بأن ينصرفا . فانطلقا بالمسير دون أن ينطقا بكلمة واحدة . كان الرمل يكتم صوت خطواتهما ، وكان ليتوما يحس بحذائه يغوص . مرا بجوار ظهر الكولونيل الساكن - كان الهواء يبعثر ثانية شعره الخفيف - واتجها ما بين الزوارق المركونة على الشاطئ نحو البقع الداكنة التي تشكلها بيوت تالارا . وحين أصبحا في القرية ، التفت ليتوما لينظر إلى الشاطئ . وبدا له أن شبح الكولونيل مازال في مكانه ، عند حافة البحر تماماً ، كظل أوضح قليلاً من الظلال المحيطة . وبعيداً عنه . كانت تتلألأ نقاط صغيرة صفراء ، منثورة في الأفق . أي واحد من مصابيح البحر تلك هو مصباح زورق زوج دونيا أدريانا ؟ وبالرغم من أن الطقس كان دافئاً هنا ، إلا أن دون ماتياس يقول إن الطقس في عرض البحر أكثر برودة دوماً ، وإن هذا السبب ، وليس الملل أو الإدمان ، هو ما يجعل الصيادين يحملون معهم دائماً زجاجة من خمر البيسكو أو الغانياثو ليتحملوا ليل البحر .

كانت تالارا مقفرة وخامدة . لم يكن يظهر نور في أي من البيوت الصغيرة التي خلّفاها وراءهما . كانت في ذهن ليتوما أشياء كثيرة يود الاستفهام عنها ومناقشتها ، لكنه لم يتجرأ على فتح فمه ، يشله إحساس غامض من الحيرة والكآبة . أيكون ما رواه لهما صحيحاً أم تراه اختلقه ؟ ربما هو صحيح . لهذا بدت له الفتاة مخبولة ، ولم يكن مخطئاً في ذلك . كان ينظر بين حين وآخر ، خفية ، إلى الملازم سيلفا : إنه يحمل الجيتار على كتفه كما لو كان بندقية أو فأساً ، ويبدو ساهماً ، وساهياً . كيف يستطيع الرؤية في الظلام وهو يضع هذه النظارة السوداء ؟

حين دوت الفرقعة ، قفز ليتوما في اللحظة نفسها ، وكأنه كان ينتظرها . لقد حطمتْ الصمت ، وكانت قصيرة وفظة ، ومنطفئة الصدى . أما الآن فقد عاد كل شيء صامتاً وساكناً . بقي واقفاً بلا

حراك ، والتفت ثانية إلى رئيسه . كان هذا الأخير قد عاود المشي بعد أن توقف لحظة .

ركض ليتوما ليلحق به :

– ولكن ، ألم تسمع يا سيدي الملازم ؟

واصل الضابط المسير ، ونظره إلى الأمام . وحثّ الخطا :

– سمعت أي شيء يا ليتوما ؟

كان ليتوما يركض إلى جانبه مذهولاً :

– العيار الناري يا سيدي الملازم . هناك على الشاطئ . ألم تسمعه ؟

قال رئيسه بلهجة مؤنبة :

– لقد سمعتُ دوياً يمكن له أن يكون ألف شيء يا ليتوما . قد يكون ضراط سكير ، أو تجشؤ حوت . أو ألف شيء آخر . لا يوجد لدي دليل على أن هذا الدوي هو صوت عيار ناري .

كان قلب ليتوما يخفق بشدة في صدره . بدأ جسده يتعرق ، وأحس أن قميصه مبلل ، ووجهه كذلك . كان يمشي إلى جانب الملازم ذاهلاً ، متعثراً ، دون أن يفقه شيئاً . وبعد أن اجتازا بضعة أمتار ، سأل وهو يشعر بدوار :

– ألن تذهب لرؤيته إذاً ؟

– لنرى أي شيء يا ليتوما ؟

فتلعثم :

– لنرى إن كان الكولونيل ميندرياو قد انتحر يا سيدي الملازم . ألم يكن هذا هو سبب العيار الناري الذي سمعناه ؟

قال الملازم سيلفا مشفقاً على جهله :

- ستعرف ذلك يا ليتوما . سنعرف إن كان كذلك أم لا . كم أنت متسرع . انتظر إلى أن يأتي أحد ، صياد ما ، متسكع ، أحدٌ يجده ، ويأتينا بالخبر إذا كان هذا السيد قد انتحر حقاً مثلما خطر لك . أو انتظر حتى نصل إلى الموقع ، فقد يتضح هناك السر الذي يقلقك . ألم تسمع الكولونيل يقول إنه ترك لنا رسالة ؟

لم يقل ليتوما شيئاً ، وواصل السير إلى جانب رئيسه . ومن أحد الأزقة الجانبية المعفرة خرجت حشرجة آلية ، كما لو أن أحداً يضبط مؤشر مذياع . وعلى شرفة الفندق الملكي ، كان هناك حارس يغفو وساقاه متدليتان ، وهو مغطى ببطانية ورأسه مستند إلى الحاجز .

تمتم أخيراً وهما في شارع الموقع :

- تعني أنك تعتقد بأن هذه الرسالة هي وصيته يا سيدي الملازم ؟ وأنه بحث عنا وهو واع أنه سينتحر بعد أن يتحدث معنا ؟

تنهد رئيسه :

- اللعنة كم أنت بطيء الفهم يا بني - وربت على ذراعه مشجعاً إياه :- لحسن الحظ أنك تفهم الأمور أخيراً ، رغم ما يكلفك ذلك من مشقة . أليس كذلك يا ليتوما ؟

لم يتبادلا مزيداً من الكلام إلى أن وصلا إلى البيت المتداعي ومنزوع الطلاء الذي هو المفوضية . كان الملازم يبعث الإخطار إثر الإخطار إلى المديرية العامة للحرس الأهلي ، موضحاً لهم بأنهم إن لم يفعلوا شيئاً سريعاً ، فسينهار السقف على رؤوسهم ، وأن الزنازين منخورة وأشبه بالمصافي وأن السجناء يبقون فيها ولا يهربون بدافع الشفقة والتهذب ، فقد كانت أخشاب الجدران منخورة أو مقروضة بأسنان الجرذان . وكانوا يردون عليه بأنهم ربما يخصصون له حصة في الميزانية القادمة .

حجبت غيمةُ القمر ، واضطر الملازم لإشعال عود ثقاب ليجد القفل . وماحك لبرهة ، كالعادة ، قبل أن يدوّر المفتاح . أشعل عود ثقاب آخر ، وبحث على الأرضية الخشبية ، عند العتبة أولاً ، ثم نحو الداخل بعد ذلك ، إلى أن أحرق اللهب أطراف أصابعه ، فنفخ عليه وهو يطلق اللعنات . هرع ليتوما لإشعال قنديل البارافين ؛ وفعل ذلك باضطراب كبير جعله يشعر وكأنه استغرق قرناً . وعلا اللهب أخيراً : لساناً أحمر ذا قلب مائل إلى الزرقة ، ارتعش متمايلاً لبضع ثوان قبل أن ينتصب متهدلاً . كان المغلف محشوراً في فجوة بين أخشاب الأرضية ورأى ليتوما رئيسه وهو ينحني ويتناوله وينهض به برفق شديد ، كما لو كان شيئاً حساساً وثميناً . حدس جميع الحركات التي سيقوم بها ، والتي قام بها الملازم فعلاً : إلقاء القبعة إلى الوراء ، نزع النظارة والجلوس على زاوية الطاولة ، وساقاه مفتوحتان جيداً . بينما هو يفتح المغلف ، بعناية دائماً ، ويسحب بإصبعين من أصابعه الورقة البيضاء ، شبه الشفافة . لمح ليتوما بضعة سطور من الخط المتشابه الذي يغطي الصفحة كلها . قرّب القنديل بحيث يتمكن رئيسه من القراءة دون صعوبة . ورأى ، والشوق يملؤه ، أن عيني الملازم تتحركان ببطء من اليسار إلى اليمين ، ثم من اليسار إلى اليمين ، وأن وجهه يكتسي شيئاً فشيئاً بتعابير سخط أو حيرة ، أو بكليهما معاً .

وحين ظن أن الضابط قد انتهى من القراءة ، سأله :

- ماذا يا سيدي الملازم ؟

وسمع رئيسه يقول :

- اللعنة - في اللحظة نفسها التي أنزل فيها يده ، وبقيت الورقة البيضاء متدلية على مستوى الركبة .

ألح ليتوما وهو يمد ذراعه :

- هل انتحر ؟ أتسمح لي برؤيتها يا سيدي الملازم ؟

فدمدم رئيسه وهو يعطيه الورقة :

- لقد فعلها العاهر - سارع ليتوما لالتقاطها ، وبينما هو يقرؤها ، بين مصدق وغير مصدق ، فاهم وغير فاهم ، سمع الملازم يضيف :- لم ينتحر فقط يا ليتوما ، بل إن العاهر قتل الفتاة أيضاً .

رفع ليتوما رأسه ونظر إلى رئيسه ، دون أن يعرف ما الذي عليه أن يقوله أو يفعله . كان القنديل في يده اليسرى ، ولا شك أن هذه الظلال التي تتطاول وتتمايل تعني أنه كان يرتعش . شوهت تكشيرةٌ وجه الملازم ، ورآه ليتوما يرمش ويغمض أجفانه وكأن ضوءاً جارحاً يبهره .

تلعثم وهو يشعر بأنه قد أذنب في شيء :

- ما الذي سنفعله الآن . هل نذهب إلى القاعدة أم إلى بيت الكولونيل ، أم لنرَ إن كان قد قتل الفتاة حقاً ؟

قال له الملازم مؤنباً :

- أوتظن أن هذا قد لا يكون صحيحاً يا ليتوما ؟

فرد الحارس :

- لست أدري . أو بالأحرى نعم ، أظن أنه قد قتلها فعلاً . ولهذا كان يبدو غريباً على الشاطئ . وأظن كذلك بأنه قد قتل نفسه ، وفعل هذا بالعيار الناري الذي سمعنا صوته . يا لأمه العاهرة .

وقال الملازم سيلفا بعد لحظات :

- معك حق : يا لأمه العاهرة .

بقيا صامتين وساكنين لبرهة ، بين هذه الظلال التي تتراقص على الجدران ، وعلى الأرض ، وعلى أثاث وأمتعة الموقع المبعثرة دون ترتيب .

وكرر ليتوما أخيراً :

- ما الذي سنفعله الآن يا سيدي الملازم ؟

- لا أعرف ما الذي ستفعله أنت - قال الضابط وهو ينهض واقفاً فجأة ، كما لو أنه تذكر أمراً مستعجلاً . وبدا وكأنه يتمتع بطاقة عنيفة من النشاط :- لكنني أنصحك بألا تفعل شيئاً الآن ، اللهم إلا الذهاب للنوم ، إلى أن يأتي أحد لإيقاظك وإعلامك بخبر هذين الميتين .

رآه يتجه بحزم نحو ظلال الشارع ، بحركاته المعهودة : يركز جعبة الخرطوش التي يثبتها على وسطه ، متدلية من الحزام ، ويضع نظارته السوداء .

تلعثم مرتعداً ، وهو يدرك الجواب الذي سيتلقاه :

- إلى أين أنت ذاهب يا سيدي الملازم ؟

فسمعه يقول وهو يختفي :

- لمضاجعة بدينة الخراء هذه والانتهاء منها .

الفصل الثامن

ضحكت دونيا أدريانا مجدداً . وبدا لليتوما أنه بينما تالارا بأسرها تَنِمُّ ، أو تتباكى ، أو تتأمل في الأحداث الكبيرة التي وقعت ، فإن صاحبة المطعم الصغير لا تفعل شيئاً سوى الضحك . وقد كانت على هذه الحال منذ ثلاثة أيام . فهكذا استقبلتهما وودعتهما في موعد الفطور والغداء والعشاء قبل أمس الأول ، ويوم أمس الأول ، وأمس واليوم : بالقهقهة الرنانة الصافية . أما الملازم سيلفا فكان ساخطاً ومتبرماً ، وكأنه قد أكل أكبر ديك رومي في حياته . وفكر ليتوما للمرة الخامسة عشرة خلال ثلاثة أيام : «أية لعنة حدثت بين هذين الاثنين ؟» . دوت نواقيس الأب دومينغو في أرجاء القرية ، داعية إلى القداس . فرسمت دونيا أدريانا إشارة الصليب دون أن تتوقف عن الضحك .

تنحنح دون خيرونيمو :

- وماذا تظنهم سيفعلون بهذا الملازم دوفو ؟

كان هناك في المطعم عند الغداء ، فضلاً عن سائق التكسي الوحيد في تالارا والملازم سيلفا وليتوما ، زوجان شابان جاءا من ثوريتوس لحضور حفل تعميد .

فرد الملازم سيلفا بامتعاض ، ودون أن يرفع عينيه عن طبقه :

- ستحاكمه محكمة خاصة . يعني المحكمة العسكرية .

وألحّ دون خيرونيمو :

- ولكنهم سيفعلون شيئاً ضده ، أليس كذلك ؟ - كان يتناول سمكة سالتاديتو مع أرز أبيض ، وكان يهوّي بصحيفة في يده ، ويأكل وفمه مفتوح ناثراً نتف الطعام من حوله :- فمن المفترض أن من يفعل ما يقال إن دوفو هذا قد فعله ببالومينو موليرو لا يمكنه الذهاب إلى بيته مطمئناً . أليس كذلك أيها الملازم ؟

فوافق الملازم بفمه الممتلئ وبانزعاج واضح من أنهم لا يتركونه يأكل بسلام :

- يُفترض ألا يتمكن من الذهاب إلى بيته بهذه البساطة . لا بد أن يحكموا عليه بشيء كما أعتقد .

ضحكت دونيا أدريانا من جديد ، وأحس ليتوما بأن الملازم يتيبّس ويغرق في مقعده كلما رأى صاحبة المطعم تقترب . لا بد أنه متيبّس إلى الحد الذي لا يستطيع معه أن يهشّ الذباب عن وجهه . كانت ترتدي فستاناً مزيناً بزهور ومفتوحاً باتساع حول العنق ، وتتقدم منهما وهي تحرك ذراعيها وتهز صدرها ووركيها باندفاع شديد . وكانت تبدو متعافيةً وسعيدةً من نفسها ومن الدنيا .

ضحكت دونيا أدريانا وربتت على ظهر الضابط بحركة تحمل من السخرية أكثر مما تحمله كلماتها :

- اشرب قليلاً من الماء أيها الملازم ، ولا تأكل بسرعة ، فقد تنزلق اللقمة في مجرى آخر .

قال ليتوما وهو يتأملها دون أن يتعرف عليها . فقد تحولت إلى شخصية أخرى ، متغنجة . أية ناموسة لسعتها :

– يا لطيب مزاجكِ في الأيام الأخيرة .

فقالت دونيا أدريانا وهي تلتقط أطباق زوجي ثوريتوس وتبتعد باتجاه المطبخ :

– لا بد من وجود سبب .

كانت تهز مؤخرتها وكأنها تقول لهما وداعاً ، وداعاً . وفكر ليتوما : « يا يسوع المسيح » . وسأل :

– أتعرف لماذا هي هكذا ، دائمة الضحك منذ ثلاثة أيام يا سيدي الملازم ؟

وبدلاً من أن يجيبه ، رماه الضابط بنظرة قاتل من وراء نظارته السوداء ، وعاد يتأمل الشارع . هناك على الرمل ، كان يوجد طائر رخمة ينقر شيئاً بغضب . وفجأة حرك جناحيه وطار .

قال دون خيرونيمو :

– أتريد أن أخبرك شيئاً أيها الملازم ؟ وأنتظر ألا تغضب مني .

فزمجر الملازم :

– إذا كان ما ستقوله يُغضبني فمن الأفضل ألا تقوله . فلست في حالة تتحمل السماجات .

زمجر سائق التكسي :

– تلقيتُ الرسالة وفهمتها .

وضحكت دونيا أدريانا من المطبخ :

– هل سيسقط مزيد من الموتى ؟

قال ليتوما لنفسه : « حتى أنها أصبحت شهية » . وفكر : « عليّ أن أذهب لزيارة مومسات الصيني لياو . إنني أتحول إلى عاجز » . كانت

طاولة الملازم وليتوما بعيدة عن طاولة سائق التاكسي ، ولكي يصل صوت أحدهما إلى الآخر كان لا بد له من المرور فوق الزوجين اللذين من ثوريتوس . كانا شابين شديدي التأنق . وكانا يلتفتان بين هذين وذاك ، مصغيين لما يقال .

حسم دون خيرونيمو أمره ، وقال وهو يضرب الصحيفة على الطاولة :

– حتى ولو كان الأمر لا يروقك ، فإنني سأقوله لك كي تعلم به وحسب . ليس هناك فرد واحد من أهالي تالارا ، سواء أكان رجلاً أم امرأة أم كلباً ، يبتلع هذه الحكاية . بل إن طائر الرخمة هذا الذي هناك لا يبتلعها .

كان الطائر الجارح قد رجع ، وها هو هناك ، قاتماً ومتعثراً ، ودموياً في تعامله مع سحلية يحملها بمنقاره . واصل الملازم تناول طعامه بلا مبالاة ، غارقاً في أفكاره وفي تجهمه .

فسأل ليتوما :

– وما هي هذه الحكاية ، إن كانت معرفتها ممكنة يا دون خيرونيمو ؟

قال سائق التكسي وهو يبصق الفضلات من فمه :

– حكاية قتل الكولونيل ميندرياو لابنته ثم انتحاره . من هو المغفل الذي سيصدق شيئاً كهذا .

فأكد ليتوما :

– أنا . أن واحد من هؤلاء المغفلين وأصدق بأن الكولونيل قد قتل الفتاة أولاً ثم انتحر بعد ذلك .

تنحنح دون خيرونيمو وهو يقطب وجهه :

– لا تتظاهر بالبراءة يا صديقي ليتوما . لقد قتلوهما كي لا يتكلما . وليلصقوا تهمة اغتيال بالومينو موليرو بميندرياو . لا تتظاهر يا رجل .

رفع الملازم سيلفا رأسه عن الطبق :

– أهذا هو ما يشيعونه الآن ؟ أيقولون إن الكولونيل ميندرياو قد قُتل ؟ ومن هم الذين قتلوه ؟

ففتح دون خيرونيمو ذراعيه :

– الأسماك الكبيرة طبعاً . ومن سيكون سواهم . لا تتظاهر بالجهل أنت أيضاً أيها الملازم ، فنحن هنا موضع ثقة . كل ما في الأمر أنك لا تستطيع أن تتكلم . الجميع يقولون إنهم قد أطبقوا فمك ولم يسمحوا لك بالكشف عن أي شيء . كما هي العادة .

هز الملازم كتفيه ، وكأن كل هذه التقولات لا تعنيه ولو بحجم أنملة ، وقال دون خيرونيمو ناثراً حبات أرز :

– بل إنهم اخترعوا عنه أنه كان يستعمل ابنته . يا للخنازير . ويا للرجل المسكين . ألا ترين الأمر كذلك يا أدريانيتا ؟

ضحكت زوجة دون ماتياس :

– أرى أموراً كثيرة ، ها ها ها .

دمدم الملازم وهو يرجع إلى طبقه وعلى وجهه تقطيبة فظة :

– الناس يظنون إذن أن كل هذا كان تلفيقاً .

فقال دون خيرونيمو :

– طبعاً ، للتغطية على المذنبين ، ولأي شيء غير هذا سيكون .

دوت صفارة مصفاة البترول ، فرفع طائر الرخمة رأسه وانكمش على نفسه ، بقي على تلك الحال بضع ثوان ، منكمشاً ينتظر . ثم ابتعد متقافزاً .

سأل ليتوما :

– وما هو سبب قتل بالومينو موليرو برأي الناس إذاً ؟

فأكد دون خيرونيمو بثقة :

– من أجل عملية تهريب بعدة ملايين . قتلوا الطيار أولاً لأنه أحس شيئاً . وبما أن الكولونيل ميندرياو اكتشف قالب الحلوى . أو كان على وشك اكتشافه ، فقد قتلوه وقتلوا الفتاة . ولأنهم يعرفون ما الذي يحبه الناس ، اخترعوا هذه القذارة القائلة بأنه قتل موليرو بدافع الغيرة على ابنته التي ربما كان يستعملها . وبهذه الستارة الدخانية توصلوا لما أرادوه ، وهو ألا يتكلم أحد عن القضية الأساسية : الملايين .

تنهد الملازم ، وكان يحز الصحن بالسكين وكأنه يريد كسره :

– يا لأمهم العاهرة كم هم مخترعون! .

وقالت دونيا أدريانا ضاحكة :

– لا تنطق بذاءات كي لا يسقط لسانك – وقفت إلى جانب الملازم وهي تحمل طبقاً من حلوى المانجا . وبينما هي تضع الطبق على الطاولة ، التصقت به كثيراً ، حتى أن فخذها الثخين احتك بذراع الضابط . فسحب هذا ذراعه بسرعة ، وضحكتْ :– ها ها ها . . .

فكر ليتوما : »يا للغرابة!« . ما الذي حدث لدونيا أدريانا ؟ إنها لا تسخر من الملازم وحسب ، بل إنها تداعبه على التمام . ورئيسه لايزال دون استجابة . يبدو وكأنه مرتبك وقانط من عجرفة وسخرية دونيا أدريانا . كما يبدو وكأنه شخص آخر كذلك . ففي أية مناسبة أخرى ، كان يمكن لملامسات صاحبة المطعم هذه أن تثير فيه جنون السعادة . ولكان هجم بسرعة مئة في الساعة . أما الآن ، فلا شيء يُخرجه من جمود التأمل الكئيب الذي هو غارق فيه منذ ثلاث ساعات . أية لعنة وقعت تلك الليلة إذاً ؟

– لقد انتشرت أخبار عملية التهريب هذه في ثوريتوس أيضاً – تدخل فجأة الرجل القادم للتعميد . كان شاباً ، ذا شعر مثبت وسن ذهبية . وكان يرتدي قميصاً بلون الخوخ ، منشى ، ويتكلم متعجلاً . نظر إلى المرأة المفترض أن تكون زوجته :– أليس كذلك يا ماريسيتا ؟

– أجل يا بانشيتو . صحيح . – قالت .

وأضاف الشاب :

– بل إنني أظن أنهم كانوا يأتون بثلاجات وأفران مطابخ . فلاقتراف جرائم كهذه لا بد من وجود ملايين كثيرة في العملية .

قالت المرأة التي من ثوريتوس وهي تطبق عينيها وكأنها تستنزل الدمع :

– من أثارت حزني هي أليسيا ميندرياو . فقد كانت الصغيرة ضحية بريئة لكل هذا . يا للطفلة المسكينة . أية تجاوزات تُقترف ؟! . وما يثير السخط أكثر هو أنهم لا يطولون المذنبين الحقيقيين بشيء . فهؤلاء يبقون أحراراً ومعهم الأموال . أليس كذلك يا بانشيتو ؟

فهمهم دون خيرونيمو :

– مَنْ يدفع الثمن دوماً هو نحن الفقراء . أما الأسماك الكبيرة فلا . ألست محقاً أيها الملازم ؟

نهض الملازم واقفاً بفظاظة جعلت طاولته وكرسيه يهتزان . وقال مبدياً ضجره من كل شيء ومن الجميع :

– حسن . أنا ذاهب – ثم توجه إلى ليتوما :– هل ستبقى ؟

– سأذهب بعد قليل يا سيدي الملازم . دعني أشرب قهوتي على الأقل .

– ليكن هنيئاً إذاً – زمجر الملازم سيلفا وهو يعتمر قبعته ويتفادى

النظر إلى صاحبة المطعم التي لاحقته من الكونتوار حتى الباب بنظرة ساخرة ، وأومأت له مودعةً .

بعد دقائق من ذلك ، وحين أحضرتْ له فنجان القهوة مع الماء ، جلست دونيا أدريانا مقابل ليتوما ، على الكرسي الذي كان يحتله الملازم .

قال الحارس خافضاً صوته كي لا يسمعه الزبائن الآخرون :

– ما عدت أستطيع تحمل الفضول . ألن تروي لي ما جرى تلك الليلة بينك وبين الملازم ؟

فردت صاحبة المطعم ، ووجهها المستدير يعكس الخبث :

– اسأله هو .

وألح ليتوما بصوت منخفض :

– لقد سألته أكثر من عشر مرات . لكنه يتظاهر بأنه لم يسمع ، ولا يفلت للسانه العنان . هيا ، لا تكوني أنانية ، أخبريني بما حدث .

– شدة الفضول من طبع النساء يا ليتوما – قالت دونيا أدريانا ساخرة ، دون أن تفارقها الابتسامة الهازئة التي تزين وجهها منذ ثلاثة أيام .

فكر ليتوما : « إنها تبدو كطفلة أقدمت على فعلة خبيثة . بل إنها تبدو وكأنها استعادت شبابها وكل شيء » .

وسمع دون خيرونيمو الذي كان قد نهض واقفاً يقول وهو متكئ إلى مسند الكرسي ، متبادلاً الحديث مع الزوجين اللذين من ثوريتوس :

– وقيل أيضاً إنها قد تكون قضية تجسس أكثر من كونها عملية تهريب . لقد سمعت هذا من صاحب سينما تالارا . ودون تيوتونيو

كابيه فرياس رجل جديّ ، لا يتكلم من أجل الكلام .

وأشار بانشيتو :

- إذا كان هو من يقول هذا ، فلا بد من مبرر لقوله .

وعززت ذلك ماريسا :

- حين يقعقع النهر ، فلأنه يحمل أحجاراً .

همس ليتوما ، باحثاً عن الكلمات :

- وأخيراً يا دونيا أدريانا ، لا تغضبي لسؤالي ، لكنني سأسألك إياه لأنه ينهش لساني : هل ضاجعت الملازم ؟ هل استجبتِ له أخيراً ؟

فهمست صاحبة المطعم وهي تشير له بسبابتها متوعدةً :

- كيف تتجرأ على سؤالي سؤالاً كهذا يا عديم الحياء .

كانت تريد الظهور بمظهر الغاضبة ، ولكنها لم تكن كذلك : فالبريق الصفراوي والسعيد كان يشع من عينيها البنيتين دوماً ، وكان فمها لايزال ينفرج عن ابتسامة غامضة وكأنها تتذكر ، بين السعادة والندم ، إثماً اقترفته :

- واخفض صوتك ، فقد يسمعك ماتياس .

كان دون خيرونيمو يقول :

- واكتشف بالومينو موليرو أن أسراراً عسكرية تتسرب إلى الإكوادور ، ولهذا قتلوه . وربما كان زعيم الجواسيس هو الكولونيل ميندرياو نفسه .

وعلق القادم من ثوريتوس :

- مصادفات ، مصادفات . إنها مثل قصص الأفلام .

- أجل ، أجل مثل الأفلام .

همس ليتوما :

- كيف سيسمعني إذا كان شخيره مسموعاً من هنا يا دونيا أدريانا . ولكن ، لست أدري . انظري ، كل شيء يبدو غريباً منذ تلك الليلة . إنني أقضي الوقت محاولاً التكهن بما حدث هنا وجعلك منذ ذلك الحين متهتكة وجعل الملازم منزوياً هكذا .

أطلقت صاحبة المطعم قهقهة وواصلت الضحك لوقت لا بأس به بقوة ملأت عينيها بالدمع . كان جسدها يهتز ، وثدياها الضخمان يتراقصان طليقين ووافرين ، تحت الثوب المزين بالأزهار . وقالت :

- إنه منزوٍ طبعاً . وأظن بأنني قد كبحت اندفاعه إلى الأبد يا ليتوما . لن يعود رئيسك أبداً للتصرف كزير نساء ، ها ها ها .

كان القادم من ثوريتوس يقول وهو يلحس سنه الذهبية :

- أنا لا استهجن شيئاً مما يقوله دون تيوتونيو كاييه فرياس . وقد سمعت هذا الكلام منذ البداية : فلا بد أن تكون يد الإكوادور وراء هذا الدم .

- ولكن ما الذي فعلتِه لكبح اندفاعه يا دونيا أدريانا . وكيف جعلتِه مسالماً إلى هذا الحد . لا تكوني متكبرة . أخبريني ، أخبريني .

تنهدت المرأة التي من ثوريتوس . وكانت سمراء ذات شعر أجعد ، محشورة في ثوب أزرق كهربائي :

- ومن المؤكد كذلك أنهم اغتصبوا ابنة ميندرياو الصغيرة هذه قبل أن يقتلوها . هذا ما يفعلونه دوماً . فمن هؤلاء التعساء يمكن انتظار أي شيء . وأنا أقول هذا مع أن لي أقارب في الإكوادور .

همست صاحبة المطعم ، كابحة ضحكتها المنفلتة ومغمضة عينيها وكأنها تريد أن ترى من جديد المشهد الذي يضحكها كثيراً :

- دخل حاملاً مسدسه في يده ليخيفني . كنت نائمة وسيطر عليّ

فزع شديد . ظننته لصاً . ولكن لا ، كان رئيسك . دخل محطماً قفل هذا الباب . عديم الحياء . معتقداً أنه سيخيفني ، المسكين ، المسكين .

تمتم دون خيرونيمو ، ماطاً رأسه من خلال الصحيفة التي كان يهشّ بها الذباب :

- لم أسمع شيئاً حول هذا الأمر . لكنني لا أستغرب طبعاً أن يكونوا قد اغتصبوها قبل قتلها ، ولا شك أن الذين فعلوا ذلك كانوا عديدين .

همست دونيا أدريانا :

- وبدأ يقول بعض الترهات .

فقاطعها ليتوما :

- ما هي ؟

- لم أعد أستطيع العيش مع هذه الأشواق . إنني محتقن باشتهائك . لم تعد هذه الورطة تسمح لي بالعيش ، لقد فاض بي . وإذا لم أحظ بك فإنني سأطلق رصاصة على نفسي ، أو عليك أنت .

تلوّى ليتوما ضاحكاً :

- كم هو مضحك . هل قال لك حقاً إنه محتقن أم أنك تنسبين إليه ذلك بخبث فقط ؟

فقالت دونيا أدريانا وهي تربتْ على يد الحارس :

- لقد ظن أنه سيؤثر بي أو يخيفني . ويا للمفاجأة التي قابلته بها يا ليتوما .

قالت المرأة التي من ثوريتوس :

- مؤكد ، مؤكد أن الذين اغتصبوها كانوا عديدين ، فهم هكذا دائماً .

- وماذا فعلتِ أنتِ يا دونيا أدريانيتا ؟

- نزعتُ قميص نومي وبقيت عارية . - همست دونيا أدريانا بخجل . أجل ، هكذا تماماً : خلعتْ الشلحة ، وصارت عارية . كان أمراً مفاجئاً ، حركة تلقائية من الذراعين اللذين رفعا الثوب بعنف وألقيا به على السرير ولم تكن في الوجه البارز من تحت الشعر المنفوش ، ولا في ذلك اللحم الممتلئ الذي يشع في الظلام أية ملامح خوف ، وإنما غضب متردد .

رمش ليتوما لمرتين أو ثلاث مرات :

- عارية ؟

فأوضحت دونيا أدريانا :

- وبدأت أقول لرئيسك كلمات لم يحلم بها قط . أو لنقل بذاءات لم يحلم بسماعها قط .

استمر ليتوما يرمش وقد أصبح كله آذاناً صاغية :

- بذاءات ؟

- ها أنذا هنا ، ما الذي تنتظره لتتعرى أيها القواد الصغير - قالت دونيا أدريانا بصوت يرتعش احتقاراً وحنقاً ، وكانت تعرض صدرها وبطنها ، وتضع يديها على خاصرتها : - أم أنك تخجل من أن تريني إياه ؟ أهو صغير إلى هذا الحد يا باباي ؟ هيا ، هيا ، أسرع ، أنزل سروالك وأرني إياه . تعال ، اغتصبني بسرعة . أرني فحولتك يا باباي . ضاجعني خمس مرات متتالية ، مثلما يفعل زوجي كل ليلة . إنه عجوز وأنت شاب ، ولا بد أنك ستحطم رقمه ، أليس كذلك يا باباي ؟ ضاجعني إذن ست أو سبع مرات ، أتظن أنك قادر ؟

تلعثم ليتوما مذهولاً :

– ولكن ، ولكن . . . أأنت من تقولين هذا الكلام يا دونيا أدريانيتا ؟

– ولكن ، ولكن . . . – تلعثم الملازم – ما الذي أصابك يا سيدة .

وهمست صاحبة المطعم :

– أنا نفسي لم أتعرف على نفسي حينئذ يا ليتوما . ولم أعرف كذلك من أين خرجت معي تلك البذاءات . ولكنني أشكر القديس كاوتيفو دي أكاباكا الذي ألهمني تلك الأمور . لقد حججت إليه مرة ، سيراً على قدمي ، أثناء أعياده في تشرين الأول . ولهذا ألهمني في تلك اللحظة . وقد بقي المسكين مذهولاً كما ذهلت أنت . هيا يا باباي ، اخلع بنطالك ، أريد أن أراه ، أريد أن أعرف حجمه وأن أبدأ بعدّ المرات التي ستضاجعني بها . هل ستصل إلى ثمانٍ ؟

تلعثم ليتوما ، وقد اتقد وجهه ، وأصبحت عيناه كطبقين :

– ولكن ، ولكن . . .

– لا يحق لكِ أن تسخري مني هكذا – غمغم الملازم دون أن يطبق فمه .

وأوضحت صاحبة المطعم :

– ولأني كنت أقول كل ذلك بتمهل أكثر مما تسمعه الآن يا ليتوما . بسخرية وغضب شديدين جعلاني أسيطر على معنوياته ، فوقف مصعوقاً . . . لو أنك رأيته .

قال ليتوما :

– لا أستغرب يا دونيا أدريانا ، فهذا ما سيحل بأي شخص آخر لو كان مكانه . فأنا الذي أسمعك تروين القصة قد صُعقت . وماذا فعل هو عندئذ ؟

قالت دونيا أدريانا :

- لم يخلع بنطاله ولا أي شيء آخر بالطبع . وكل الرغبة التي كان يحملها تحوّلت إلى دخان .

- لم آت هنا لتسخري مني يا سيدة أدريانا - هتف الملازم مستغيثاً دون أن يدري أين يختبئ .

- بالطبع لا يا بن العاهرة ، أنت آت إلى هنا لتخيفني بمسدسك وتغتصبني ، لتشعر بأنك فحل قوي . هيا اغتصبني إذاً يا سوبرمان . هيا ، أسرع . اغتصبني عشر مرات متتاليات يا باباي . فهكذا سأرتوي . ماذا تنتظر ؟

همس ليتوما :

- أنت مجنونة . .

تنهدت صاحبة المطعم :

- نعم ، لقد جننت . ولكن ذلك أعطى نتيجةً . فبفضل جنوني مضى رئيسك بمعزوفته إلى مكان آخر ، وذيله بين ساقيه . لقد فلقني تصنّعه الغضب . يا للسافل .

قال الملازم معترضاً :

- لقد جئتُ لأفضي لك بمشاعر صريحة وأنت تسخرين مني وتغضبينني . وهذا لأني أتنازل وأكلم عاهرةً .

وأضافت دونيا أدريانا :

- انظر إليه كيف صار الآن . إنه في الحضيض . حتى أنه صار يثير فيَّ الأسى .

قهقهت ضاحكة مرة أخرى ، سعيدة بنفسها وظرافتها . وأحس ليتوما بفَيْض من التضامن والتعاطف نحو رئيسه . فهو محق بضيقه

هذا ، لأنها أهانته في كرامته كرجل . حين سيروي للمنيعين الأمر فسوف يثيرون صخباً شديداً وسيقولون إن دونيا أدريانا تستحق ، أكثر من تشونغا ، أن تكون ملكة المنيعين وسينشدون نشيدهم على شرفها .

لمّح الرجل الذي من ثوريتوس :

- وهنالك من يشير أيضاً إلى أن القضية هي مسألة شذوذ جنسي .

فرمش دون خيرونيمو متباهياً :

- شذوذ جنسي ؟ آه ، أجل ؟ ممكن ، ممكن .

فقال الذي من ثوريتوس :

- طبعاً ممكن . ففي الثكنات العسكرية تكثر حالات الشذوذ الجنسي . وكما هو معروف ، فإن قضايا الشذوذ الجنسي تنتهي عاجلاً أو آجلاً بجرائم . ومعذرةً إن كنا نتحدث أمامك بهذه الأمور يا ماريسيتا .

- لا حرج في هذا يا بانشيتو . فالحياة هي الحياة .

كان دون خيرونيمو يقول وهو ساهم :

- ممكن ، ممكن . من كان يمارس ومع من ؟ كيف ذلك ؟

وغيرت دونيا أدريانا موضوع الحديث فجأة :

- لا أحد يصدق قصة انتحار الكولونيل ميندرياو .

فدمدم ليتوما :

- هكذا أرى .

وأضافت صاحبة المطعم :

- الحقيقة أنني أنا أيضاً لا أصدق . وأخيراً ، كيف سيكون هذا .

نهض ليتوما ، ووقع إيصال الغداء :

– وأنت كذلك لا تصدقين ؟ ومع ذلك فأنا أصدق القصة التي رويتها لي ، بالرغم من أنها أكثر خياليةً من انتحار الكولونيل ميندرياو . إلى اللقاء يا دونيا أدريانا .

نادته :

– اسمع يا ليتوما – ثم أضفت على عينيها بريقاً من الخبث ، وخفضت صوتها جداً : – قل للملازم إنني سأصنع له هذه الليلة فطير التاكو – تاكو التي يحبها كثيراً . فلعله يحبني ثانية ، ولو قليلاً .

أطلقت قهقهة تغنج ، فأفلتت من ليتوما كذلك ضحكة وقال :

– سأقول له ذلك بحذافيره يا دونيا أدريانا . إلى اللقاء .

يا للمفاجأة ، من ذا الذي يفهم النساء . كان يتقدم باتجاه الباب حين سمع دون خيرونيمو يقول وراءه :

– لماذا لا تخبرنا يا صديقي ليتوما كم دفعتْ الأسماك الكبيرة للملازم كي يخترع قصة انتحار الكولونيل تلك .

فرد دون أن يلتفت إليه :

– هذا المزاح لا يروقني . وهو لا يروق الملازم أيضاً . وإذا علم بهذا الذي تقوله فسيدوسك يا دون خيرونيمو .

وسمع سائقَ التكسي العجوز يدمدم : « شرطي الخراء » ، فتردد لحظة مفكراً بالرجوع . لكنه لم يفعل ذلك . خرج إلى قيظ الشارع الخانق . وتقدم عبر الأرض الرملية الملتهبة ، وسط معمعة الأولاد الذين يتقاذفون بأقدامهم كرة من الخرق القماشية ، والذين كانت ظلالهم ترسم جغرافية مضطربة حول قدميه . بدأ يتعرق ، والتصق قميصه بجسده . إن ما روته له دونيا أدريانا لا يصدق . أيكون صحيحاً ؟ أجل ، يجب أن يكون كذلك . إنه يعرف الآن سبب انحطاط مزاج

الملازم منذ تلك الليلة . فغضبه من بدينته في هذا الوقت ، وسط هذه التراجيديا ، غضب رهيب . ولكن يا لسوء النهاية التي آلت إليها قضيته . من كان سيصدق أن دونيا أدريانا ستتكشف عن امرأة مسلحة هكذا . تخيلها عارية ، تسخر من الملازم ، وجسدها المتين يرتعش وهي تومئ ، بينما الضابط المذهول لا يريد أن يصدق ما يسمعه ويراه . إنّ أي شخص مكانه سيفقد زمام نفسه وسيشعر برغبة في الخروج هارباً . وانتابته نوبة من الضحك .

وجد الملازم جالساً إلى مكتبه في المركز بلا قميص ، ومبللاً بالعرق . كان يهوّي بإحدى يديه ويحمل باليد الأخرى برقية ، يدنيها كثيراً من نظارته . وحدس ليتوما ، من وراء زجاج النظارة القاتم ، بأن عيني الضابط تتحركان على سطور البرقية . فقال :

– العظيم في كل هذا هو أن أحداً لا يصدق بأن الكولونيل ميندرياو قد قتل الفتاة وانتحر . إنهم يتحدثون بأعظم السخافات يا سيدي الملازم . يقولون إنها جريمة من أجل التهريب ، ومن أجل التجسس ، وإن للإكوادور يداً في القضية . ووصل الأمر إلى حد القول بأن السبب هو أمور شذوذ جنسي . تصوّر السخف .

فقال الملازم ملتفاً إليه :

– أخبار سيئة لك . لقد نقلوك إلى موقع نصف شبحي ، في إقليم خونين . عليك أن تكون هناك خلال ما يستغرقه قطع المسافة للوصول . وسيدفعون لك أجرة الانتقال بالحافلة .

فقال ليتوما وهو ينظر إلى البرقية كالمُنَوَّم :

– إلى خوخين ؟ أنا ؟

فأكد الملازم :

– وأنا سينقلونني ، ولكنني لم أعرف بعد إلى أين . ربما إلى هناك أيضاً .

فتلعثم ليتوما :

- لا بد أنه مكان بعيد جداً .

فأنبّه رئيسه بشيء من التأثر :

- أرأيت أيها الأبله . كنت متشوقاً للكشف عن سر بالومينو موليرو . وها قد كشفته ، فماذا جنينا ؟ . يبعثون بك إلى الجبال ، بعيداً عن دفئك وعن أهلك . وربما بعثوا بي أنا إلى جُحْر أسوأ . هكذا يُكافَأ العمل الجيد في الحرس الأهلي هذا الذي انضممنا إليه . ما الذي سيصيبك هناك يا ليتوما ، ومن رأى طير رخمة في الأنديز ، إنني أموت حزناً لمجرد التفكير بالبرد الذي ستعانيه .

وفلسف الحارس الأمر :

- يا لأبناء أعظم العاهرات .

الفهرس